دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

رسالة البعث العربي — ١

العبقرية العربية

في لسانها

بقلم

زكي الارسوزي

مطبعة الحياة — دمشق
شارع خالد بن الوليد

لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

تمهيد

نحاول بهذا التمهيد أن نكشف للقارىء عن أصالة الموضوع ، وأن نبين له نواحيه الجديدة ذات الطابع البدىء ، وأن ندله على الأسباب التي ساقتنا اليه ، وعلى الظروف التي اكتنفت كتابته لما لهذه الظروف ولتلك الأسباب من تأثير على انارة البحث .

هذه الرسالة تجيب بالحل على مشكلة اللغة إجابة قاطعة . وهي بذلك، تكون قد حلت احدى المشاكل المتعلقة ببداية الأشياء المستعصي حلها حتى الآن . كان أمر نشوء اللغة ونظامها معضلة تطرح على الصورة التالية :

أهي موضوعة من قبل العقل وفق عرف متفق عليه ؟ أم هي موحاة وحياً من السماء ؟ ولكن ربط المسائل بالغيب ليس بحل لها ، بل ان في ذلك لحداً من سلطان العقل في تقصي الاسباب . واما اعتبار اللغة مجموعة من الرموز موضوعة من قبل العقل فينتهي بحلقة مفرغة لا مخرج لها ، اذ أن وضع اللغة على مافيها من تنسيق ونظام يتطلب عقلاً بمنتهى الكمال . وكيف يسمو العقل إلى هذا الحد اذا لم يستند في انتشاره الى الكلام ؟ هذا ، ومما كان يزيد في الصعوبة هو ان جذور الكلمات في اللغات، المتيقظة شعوبها على الحضارة، قد ضاعت في الأزمنة الغابرة، بحيث أصبح العلماء، المختصون بدراسة هذه اللغات، يفتقرون الى مثال حي يتخذونه سندا لوجهة النظر المقررة . وهاك اللغة الفرنسية على سبيل المثال . فقد حصلت الكلمات الفرنسية من تطور أصاب الكلمات اللاتينية . وهذه كانت قد حصلت بدورها من تطور أصاب الكلمات الهندية الاوربية ، وأما جذور الكلمات الهندية الاوربية فقد ضاعت في ظلمات التاريخ عند بدء تكوين الانسانية .

وبينما كان العلماء يفقدون الأمل في ايجاد الحل لمشكلة اللغة التي بها يتميز الانسان عن الأحياء الأخرى ، كانت الصدفة السعيدة تتيح لنا معرفة النهج الذي سلكته الحياة في انشاء أداة بيانها . والمثال على هذا النهج هو اللسان العربي . ان الكلمات العربية لم تزل ذات جذور في الاصوات الطبيعية ، وان اللسان العربي لم يزل محتفظاً بنمط نموه نحو أداة بيانية متكاملة ، منذ ظهور الانسان حتى الآن . ونحن نعني بظهور الانسان، مرحلة الانتقال من عبارة الهيجان الطبيعية الى الكلمات التي تعبر عن معان يجيش بها الوجدان ، كالانتقال من « آخ » والتي هي عبارة التوجع الى « الأخ والاخوة والاخاء ... الخ » .. او كالانتقال من « إن » الى « أنا » والانانية .. الخ ...

وإليك بعضاً من الامثلة على نشوء الكلمات من الاصوات الطبيعية ، وعلى نمط نمو اللسان نحو أداة بيانية متكاملة : لما طرق صوت خرير الماء اذن العربي تشخص في خياله الماء في مجراه ، وذلك لما بين الصوت والرؤية هنا من علاقة اقتران . وكلما كان يتلون تاثير الماء في مجراه كان الذهن يعبر عن الحالة المستجدة بالحاقه حرفاً الى صوت « خر » ، مع مراعاته بيان الحرف الملحق . وهكذا حصل من الحاق حرف « ب » بـ « خر » فعل « خرب » ، ومن إلحاق حرف « ج » به فعل « خرج » ، ومن إلحاق حرف « م » به فعل « خرم » .. الخ .. وهكذا وضعت الكلمات المعبرة من تلون تاثير الماء في مجراه : خرباً أو خروجاً أو خراماً ... الخ ...

وهاك نهجاً آخر سلكه الذهن في انشاء الكلمات من الاصوات الطبيعية : فمن صوت « ترّ » الذي هو صوت سقوط الماء متقطعاً استحدث فعل « درّ » ، ومن « درّ » استحدث فعل « ذرّ » . هذا النهج غير النهج السابق ، لقد انتقل الذهن هنا من حرف « ت » الى شقيقه بالمخرج « د » ، ومن حرف « د » الى شقيقه بالمخرج « ذ » . وهكذا كان التلون في الخيال المرئي يدعو الى احداث تلون في الصوت . ويبدو ذلك التلون في ترّ الماء ، ودرّ الحليب ، وذرية الانسان .. الخ .

وكان للأصوات التي تحصل في الفم الحظ الأوفر في انشاء الكلمات ، فمن صوت « بتّ » الذي يحصل من تقاطع اللسان بالنطع استحدث الذهن « بتر » و « بتل » .. الخ .. ومن تحويل حرف « ت » في بت الى شقيقه بالمخرج « ط » استحدث « بطّ » و « بطل » .. الخ .

وهناك نهجاً آخر في وضع الكلمات العربية . فمن صوت « نْ » استحدث « أنا » و « أنت » ، « أنس » ، و « انسان » .. الخ .. ومن الحاق حرف « ب » بـ « نْ » استحدث فعل « نبّ » المعبر عن معنى الظهور من الصميم الداخـلي الى الخارج ، بحسب بيان ونظام حرفي « ن » و « ب » ، ومن إلحاق حرف آخر ب « نب » استحدثت الافعال التالية : نبت ، ونبك ، ونبق ، ونبع ، ونبغ ، ونبأ .. الخ ..

ونحن نستخلص من ذلك ان الحياة قد سلكت النهج التـالي في انشاء أداة بيانها ـ اللغة . استفادت من خضوع الصوت للارادة وهو احد عبارات الهيجان الطبيعية ، واستفادت ايضاً من انتقال الصوت عبر المكان ، بحيث اصبح اداة للتفاهم والتعاون بين الاخوان . واستعانت بحاسة البصر ، ذات التلون الدقيق ، مقيمة التعادل بين تلونات هذه الحاسة وبين الصوت ، متخذة من الصورة وسيلة لجلاء المعنى .

واما مبدأ العلاقة بين الصوت والمعنى ، فيظهر في الامثلة الآتية : فصوت « غ » يوحي معنى الغيبوبة . ونحن نجد هذا المعنى في الكلمات التي تبدأ بهذا الحرف ، غاب غاص ، غرب .. الخ .. وحركة الفتح يوحي حدوثها ، المرافق لركون اللسان فخروج الصوت ، معنى الركون . ونحن نجد هذا المعنى اينما وجدت الفتحة . نجده في حركة آخر حرف من الفعل الماضي المنقطع عن الفعالية ، ونجده في المفعـول الملزم بالركون لاحتماله فعل الفاعل .. الخ ، وذلك مايوحي بأن جذور اللغة هي في الحياة ، في العلاقة المتبادلة بالتأثير بين وضع الجسد وبين المعنى الذي هو صداه في الوجدان ، وفي الهيجان ، الذي فيه الصوت بادرة بين بوادر اخرى . وكما ان

وظيفة البوادر هي تجسيم الشعور بحيث يتنبه الكائن الحي الى سبب الهيجان لما له من اهمية بالنسبة لصير الحياة كذلك اللغة تبقى مهمتها نقل المعنى حياً الى الآخرين ، وان البيان الصوتي من الحدس بمثابة البيئة الطبيعية من كوامن الحياة في بذور النبات . ومثل البيان الصوتي في اللغة كمثل الوسامة في الوجه . ويشير الى هذه الحقيقة القول المأثور « ان من البيان لسحراً » . وهل من شيء أتفه من وجه طامس المعالم عديم الوسامة ؟. نحن نسوق هذه الكلمة للذين قصّر ادراكهم عن مغزى الاعراب في اللسان العربي . حتى ان وثوق الصلة بين المعرفة والعمل عند العرب يرجع الى ميزة الايحاء التي تملكها الكلمة العربية .

وهل يقف الايحاء في الكلمة العربية عند حدود البيان الصوتي ؟ افلا يتناول ايضاً الرؤية بحيث يفيد المعنى من وضوح وتلون هذه الحاسة ؟ ان مثل الكلمة العربية في ذلك كمثل الشعر في استخدام الصور المجازية . فعندما ينشىء النابغ كلمة « فرس » مثلاً ، من « فرّ » بالحاق صوت « س » المعبر عن الحركة بـ « فرّ » صوت الطائر ، ثم يقره الجمهور على هذا الانشاء ، تبقى الكلمة الموضوعة محتفظة بخيال النشأة الذي هو سرعة الجري . وكلمة « فرس » تختلف في الاستعمال عن كلمتي : « حصان » و «جواد» ، من بين الكلمات الموضوعة في هذا الاتجاه . اذ ان لكل منها معنى يتفق مع خيال نشأته ، فالحصان يتضمن معنى الحصن اي بقاء الفارس الذي يمتطيه كأنه في حصن حصين ، والجواد يوحي بان المطية تجود بدمها في سبيل فارسها .

وعن تصالب الصوت والخيال المرئي في الكلمة العربية ينتج امران : اولهما فقدان المترادفات سبب الالتباس في اللغة . واذا ظهرت بعض الكلمات مترادفات ككلمتي « أسد » ، و « غضنفر » مثلا ، فذلك لأن الفارق بينها في الاستعمال قد طمس علينا نحن الذين لم نعد نرى السبع الا في القفص . ولكن عندما كان اجدادنا يعيشون بين السباع كانوا يضعون لكل موقف من مواقف السبع اسماً مميزاً . وهكذا انشئت كلمة « أسد » من سد حماه ، ومن هنا « السيد » الذي يحمي

عشيرته . ومن هنا ايضاً « الاسود » وهو الذي يتخلف عن حماية الحقيقة . وهكذا نحتت كلمة « غضنفر » من غض" ونفر تعبيراً عن موقف السبع عندما يهاجم ،فتنفر غضونه .

والامر الثاني هو الاختلاف في التطور بين الكلمة العربية وغيرها في اللغات الاخرى . لقد جرت العادة بأن تعرف الكلمة الفرنسية مثلا بالرمز . وهذا يعني ان العلاقة بين الصوت والمعنى في الكلمة المذكورة تقوم على العرف لاعلى رابطة طبيعية بينها . يضاف الى ذلك ان الكلمة الفرنسية تخضع في تطورها عبر الاجيال لمبدأ التقليد اللفظي ،فتتأثر من اختلاف الشقة بين المقلد والمثال ،بحيث ينتهي الامر على مدى الاجيال الى تبدل معالمها . وهكذا اصبح الفرنسيون اليوم لايفقهون شيئاً من أدبهم المعاصر لأدبنا في العهد العباسي ، اللهم إلا الذين اختصوا منهم بدراسة اللغات الرومانية . ولهذا السبب جرت تسمية اللغات الحديثة باللغات التاريخية بمعنى خضوع تطورها للتاريخ .

غير ان الكلمة العربية صورة . وهي ككل صورة تلزم التقيد بمقتضيات طبيعتها الخاصة . انها تستمد سلامتها من صيغة مثلى Standard ليس لتداولها بين الناس أية حلة شرعية يضفيها عليها . مثل الكلمة العربية كمثل الحياة التي هي امتداد لها ، فكما ان انتشار المرض وانتقاله عبر الاجيال لايغيران من طبيعته كحالة مرَضية، فكذلك الكلمة الموضوعة وضعاً شاذا في اللغة العربية لايقوى الزمان على توكيد سلامتها . حتى لقد ترجع صبوة العربي الى المثل الاعلى ،الى نزوع كلماته، الى تخطي الواقع المتعارف عليه نحو مثل تستكمل به شروط سلامتها .فهل من تفسير لظهور مئة واربعة وعشرين الفاً من الانبياء بجزيرة العرب غير تفسير الاتفاق في الصبوة نحو المثل الاعلى بين الكلمة العربية وبين صاحبها ؟ وذلك ما يجعل الاختلاف في التطور بين لغتنا وبين لغات غيرنا من الاقوام . فبينما كانت الكلمة عند غيرنا تتطور من جيل الى جيل حتى تصبح في نهاية الامر مختلفة المعالم عن نشأتها ،كانت الكلمة العربية تبقى على ماهي عليه لايؤثر فيها الزمان . وكل ماكان يحدث هو

أن اجدادنا اذا ما انتقلوا من مرحلة تاريخية الى اخرى كانوا يسقطون من التداول الكلمات المعبرة عن الاوضاع المهملة وينشئون في حدود نظام اللغة مايعني منهـــا بالتعبير عن حاجات المرحلة التاريخية المعاصرة . واذا ما أقمنا المقارنة بين قصيدة من الادب الجاهلي كقصيدة عبد المطلب جد الرسول مثلا وبين قصيـدة اخرى من الادب الفرنسي في عهد شارلمان المتأخر خمسمائة سنة عن عبد المطلب وجدنا القصيدة الاولى لاتختلف من حيث السهولة لافهام الاجيال منذ وضعت حتى الآن، ووجدنا القصيدة الثانية تعز على افهام الافرنسيين اليوم ، إلا الذين اختصوا منهم باللغة الرومانية .

كنا قد اشرنا الى ان الكلمة العربية تتألف من صورة صوتيـة ومن خيال مرئي ومن معنى هو قوام تآلفها . ونحن نسوق هنا على سبيل المثال كلمة «فقه». فالصورة الصوتية في هذه الكلمة هي صوت « فقه » الحاصل من غليان الماء مـع الحاق صوت « هـ » بها ، والخيال المرئي هو خيال التفتح من الداخل ، الخيـال الموجود في الكلمات ذات النشأة المشتركة : كفقأ (الدملة) ، وفقـح (الكلب عينيه) ، وفقص (النقف) ، وفقع ، وفقر .. الخ . والمعنى هو الحقيقة المتجلية من صميم النفس مستضيئة بنور ذاتها . وذلك مايجعل الكلمة العربية ذات معالم واضحة لاتقبل الالتباس بغيرها ، وذلك مايجعل لكل مفهوم صورة حسية هي منه بمثابة التعريف بالاشارة . فالذكاء مثلا صورة حية هي ذكاء ـ الشمس . ولمعة الذكاء من النفس بمثابة الشمس من الاشياء في الطبيعة ، يهتدي الذهن على شفقها في حـــل المشاكل باقرب الطرق واسهلها ، متجنباً المحاولات الفاشلة وما يرافقها من تعب وخيبة . وكذلك الكلمات : رأس ، وجه ، ثوب .. الخ ، فلكل منها صورتهـا الحسية : رئيس ، وجيه ، ثواب .. الخ ..

انه الى تكوين الكلمة العربية هذا يرجع الطابع البديء للرابطة الاشتقاقية في لساننا . فاذا كان المعنى يؤلف بين الصورة الصوتية والخيال المرئي في الكلمـة فان الحدس المنطوي في المصدر هو ايضاً قوام الرابطة بين المفاهيم العقلية والمدلولات

الحسية في اسرة الكلمة . واليك الكلمات التالية على سبيل المثال : نبأ (صات خفيفاً ، والنبأ (الخبر) ، والنبوءة (الاخبار عن الغيب) ، والنبي (المخبر عن المستقبل) . هذا من جهة، ومن جهة ثانية ، نبأ الشيء : ارتفع والنبيء : الطريق الواضح ، والنابيء (المكان المرتفع) .. الخ .

وللعلاقة الاشتقاقية هذه نتائج هامة في مصير الثقافة ، منها : الكشف عن نمو الذهن بتجاوب وجهتيه : المحسوس والمعقول، كتنبهه مثلا للحرارة في الطبيعة ، ثم وضعه الكلمة المعبرة عن ذلك بتأثير شعور الغيرة الذي يظهر بمظهر الحرارة عند الاحرار ، ومنها ظهور الذهن تارة بمظهر تقتنصه الصور ، وتارة بمظهر مصمّم يتجلى فيه الحدس كتجلي الالهام في كلمات القصيدة او في انغام الانشودة . وهاك عن كل من الحالتين مثالاً : في أسرة الكلمات التي ترجع الى « أج » نجد اتجاهات متباينة كالاجيج (الصوت الحاصل من اختلاط الكلام) واجاج (ماء اجاج ماء مر مالح) ، وتأجج (التهب) ، واما السبب في هذا التباين بين كلمات من نفس الاسرة فهو تأثر الذهن في تطوره بقواعد التداعي كالاقتران والتضاد والمشابهة . ان الصوت الذي استحدثت منه الكلمات المذكورة هو صوت ذكر الحمام عندما يحوم حول الانثى فينفش ريشه ، ويحمى . فمن الحالة الاولى انتقل الذهن بالمشابهة الى البحر المهتاج ومنها الى طعم المر المالح . ومن الحالة الثانية انتقل الى النار فانشأ كلمة تأجج .

واما الحدس كمصمم فنكتشف عنه بالمثال الآتي : كلمة « وجد » تنطوي على حدس في تلازم النزعة مع غرضها . وجد ضالته : ادركها بعد ان بحث عنها . وكلمة وجد تشير بمصدريها : الوجود والوجدان ، الى ان الوجود هو النزعة متبلورة في صورة ، وان الوجدان هو النزعة منكشفة لذاتها معرفة . ومصدران آخران لوجد : الوجد والجدة ، يشيران الى التوافق بين الغرض والنزعة . وهناك المصدر موجده (الغضب) يعبر عن حالة التنافر بين وجهي الحقيقة : المعنى والعبارة ، النزعة وغرضها .

فبالصورة الحسية اذن يتضح الذهن ، وباشتقاقه هـذه الصور المقتبسة عن الطبيعة يتوضح . واذا ما استجمت هذه التجليات الحسية والمفهومات التي تحملها في وحدة ادراك انكشفت في الوجدان الحدُس ، التي انبثقت منها منظومات معانيها ، عن بصائر في بنيان الكائنات .

ولدراسة اللسان العربي دراسة توليدية génétigue نتائج لاتقل أهمية عن حل لغز اللغة : من ذلك انها تلقي ضوءا على جذور الانسانية، وعلى العلاقة بين الاقوام في مهد الحضارة .فمادامت الاصوات الطبيعية التي هي جذور الكلام محفوظة في اللسان العربي ، وما دام مبدأ الاشتقاق هو قوام هذا اللسان، فانه لمن السهل علينا تعيين العلاقة . اللغوية بيننا وبين الآخرين . فاذا وجدنا كلمة « نبي » مثلاً مشتركة بين اللسان العربي واحدى اللغات السامية ، فان الكلمة عندنا ترجع الى اسرة « نبأ » . واسرة نبأ ترجع الى ارومة « نب » ومنها الى صوت « نْ » الطبيعي والمتضمن بحسب حدوثه معنى الصميم او معنى الصوت الخفي . ونحن بالاستناد الى هذا المنهج نستطيع ان نظهر مدى صدق الاسطورة القائلة بوحدة بني البشر ، اي مدى صدق اسطورة آدم . وذلك باقامة المقارنة بين قواعد اللسان العربي وكلامه من جهة، وبين لغات الام عند الامم الاخرى .فاذا ابانت الحضارة اصلاً مشتركاً لكلمات «رجل » في العربية ، «راجا» في الهندية و« ركس » في اللاتينية ، واذا كان هذا الاصل يرجع الى « رج » الارض رجاً ومنها الى صوت « ر » المعبر بحسب حدوثه في الضم عن الحركة، اذا كان الامر كذلك، ثبتت وحدة النشأة بين العربية وبين الهندية الاوروبية التي هي ام لغات العرق الابيض الاري ، واذا كانت المقارنة تشمل ايضاً لغات العرق الاصفر ولغات الشعوب الابتدائية ، تكون الاسطورة المتعلقة بوحدة بني البشر قد تحققت . والا ، فان الاختلاف في جذور الكلام وفي القواعد يدل على الاختلاف في المبدأ أي على استقلال الاقوام بالنشأة . وعندئذ يرجع الشبه بين الاقوام الى استعداد الحياة لايجاد اللغة كوسيلة للبيان وحسب ، كما هي الحالة في التعبير عن الشعور بالهيجان .

ولما كانت الكلمة العربية تنم عن خيال مرئي ، فقد اصبحت ذات ايحاء . وتبدو قوة الايحاء هذه في تكوين الاساطير . فاسطورة اللآت (ألآت) مثلاً تتضمن معنى المستقبل والحكمة . ونحن نجد هذه الاسطورة عند المصريين : آتون ، ونجدها ايضاً على نفس اللفظ والمعنى عند اليونان : آتينا و كذلك: آدونيس،من أد ـ اعطى،بمعنى الفيض والجمال. و كذلك عشتروت من العشرة، العش . .

ودراسة قواعد اللسان العربي هي ايضاً تكشف عن تكوين العقل البشري ، وعن وجهة نظر الحياة في الكائنات . واليك بعض الامثلة . انشأ الذهن اسمي المكان والزمان واجملها بصيغة واحدة ،الظرف . وهو بذلك قد سبق الفيلسوف الالماني « كانت » . وانشأ صيغتين للجمع . احداهما للناس والاخرى للأشياء . وجعل الاولى على صورة يكشف بها عن حدسه في علاقة الفرد والجماعة ، علاقة نمو وازدهار . وهو بذلك يؤيد نفسه في اشتقاقه كلمة انسان من الأنس .

وبعد أن أوجزنا القول عن اللسان العربي : نشوئه وطابعه البديء ومزاياه ، نتناول بالحديث الاسباب التي دعتنا لدراسته . لما هاجرت من انطاكية الى سوريا، وكان ذلك عام ١٩٣٨ عند احتلالها من قبل الاتراك ، سألت نفسي عن الاسباب التي كانت تحملني على التضحية في سبيل العروبة . هل كان ما يحملني على التضحية صوت الواجب ؟ ام كان صوت الاجداد . الملخص عادة بمفهوم الامة ؟ ربما كانت الدعوة مزيجاً من كليهما : من الواجب المنبعث من اعماق النفس ومن الوحي الحاصل من مقتضيات الظرف ؟ ولكني كنت اعود الى المسألة من مستوى آخر .

كنت أتساءل : هل الامة محصلة للظروف التاريخية ؟ ام هي عبقرية تبتدع مظاهرها ومؤسساتها كاللغة والفنون والعرف والأخلاق .. الخ وتوجهها في الوجهة التي ترفع بابنائها نحو غاية مثلى ؟ وبينما كنت متحيراً في امري متردداً بين دراسات الفن والتشريع ، عليّ اجد فيها قبساً يخرجني من الحيرة اذا بصدفة سعيدة تدلني على مكمن السر : اللغة . واما الفرصة السعيدة فهي انني عندما كنت اتصفح القاموس رأيت الصلة بين الافعال المتسلسلة ذات طبيعة مزدوجه : صوت وخيال

مرئي ، كما بينت ذلك. وعندما رأيت الافعال تنتهي بصوت طبيعي كصوت خرير الماء مثلاً وبخيال مرئي هو الماء في مجراه ، هو السبب في حدوث الصوت، ادركت السر في نشأة اللغة . ودهشت لما بدا لي شمول المبدأ الكلمات العربية جميعها .

وأغرب ما في الامر هو الانسجام بالمعنى بين كلمات وضعت في امكنة متباعدة وفي اوقات متفاوتة . حتى لقد بدت لي الكلمات والقواعد ، من حيث انها تعبر عن وجهة نظر معينة ، على مثال كلمات القصيدة في تعبيرها عن الالهام مصدر النظام فيها . واذا كانت القصيدة توحي بمبدعها الفنان ، فلماذا لا يوحي الانسجام بين ظواهر اللغة بعبقرية امة مبدعة وموجهة ؟

• • •

المقدمة

لقد خيل لاجدادنا ان النجوم نوافذ يشرق منها المعنى (الاله) بنوره على الكائنات ، فاذا اتممنا نحن احفادهم ، هذه الصورة الشعرية بنسبية المكان لعالمنا ، عالم الشهود ، ادركنا فيها عندئذ رمز بنيان حياتنا ، فردية كانت ، أم اجتماعية .

كذلك خلايا البدن ، وان بدت منفصلة في المكان ، متخلفاً بعضها عن بعض في الزمان ، فهي باتجاه انبثاقها ، متصلة بوحدة ينبوعها .

وان ابناء الأمة ايضاً ، وان ظهروا على مسرح الوجود متفرقين متفاوتين ، فانهم بمصدر انبثاقهم موحدون ، وحدة بها تنسجم اعمالهم في انشاء مؤسساتهم ، متلازمة ، متنامة ، رغم التباعد في المكان ، والتفاوت في الزمان .

وان اسطورة آدم (خلق الله آدم من تراب فجعله على صورته ونفخ فيه من روحه) ، هذه الاسطورة التي عبرت بها الامة العربية عن نظرتها في الوجود ، تكمل هذه الصورة الشعرية ، وتشير الى رسالة هذه الامة في التاريخ .

فآدم (من الاديم ، وقوته الادامة) هو من اديم الارض ، عنها يقتبس عناصر بدنه ، ومنها يستمد نسغ حياته ، وهو منها كالبرعم من شجرته . وليس البدن الا بدور النفس في الكون وجوداً .

ولئن اقتبست الحياة من القدر (الطبيعة) عناصر بنيتها ، فقد دلت بهذا

الاقتباس على نفوذها فيه ، وبدء سيطرتها عليـــه ، وهي قد حققت بالانسان صبوتها ، فخلقت من بدنـــه قدراً طوع ارادتها ، به تحرر معناها ، وبهذا التحرر اصبحت على صورة الاله ، مبدعها .

ان اللسان العربي قد اشار ،باتجاهات الحدس التي انطوت عليها كلماته، الى حدود هذه الصورة ومعنى نموها .

فالكون (من كان ، مكان ، الكائن) هو اطارها . والدنيـا ، (دنا ، يدنو ،دنيء، دنيئة) هي حدود ميولها وفعاليتها ، وبفسحة مداها تتعين مرتبة صاحبها في الوجود ، سواء أكان نوعاً حيوانيا ، ام امـة ، ام فرداً . واذا ما تقلصت دنيا صاحب هذه الصورة صار دنيئاً .

والعالم (من علم ، علا) هو اكتساب هذه الصورة (اي النفس) شعورا بذاتها في تجلياتها ، واستجام هذه التجليات على درجات متفاوتـــة بالشمول وبالعمق ، شمولا تمس به نظام الكون الرياضي ، وعمقا تتآحد فيه المعرفـة (غايتها) بالبصيرة . ولئن شفت المعرفة باقترابها من الكون،اطارها، وضؤل العمل الملازم لها،فهي باعتلائها على هذا الحد الادنى ، قاعدة ارتـكازها ومأخذ رموزها ، نحو مصدر انبثاقها ، تجلى لها الوجـود عندئذ بنيانا رحمانيا وعدلا متساميا .

الا تنطوي كلمة (وجد) ايضا على النزعة وغايتها ، مع الاشارة الى ان الاولى تتقدم على الثانيـــة (التحري عن الشيء ثم ادراكه) .فكأني بالنفس تهتدي على نمط معكوس الى حقيقتها اهتداء الانسان الى صورته بخيالها ،وليس عبثا ان اشتق الذهن العربي كلمات (وجدان)،(وجد) (تواجد) ،(وجود) موضحا بها حدسه هذا .

ولئن ادركت هذه الصورة نموها (عمق الوجود) بالارتقاء الى مصدر انبثاقها ، فقد تحرر معناها من القدر (العالم الخارجي وبدنها) فتمتعت حينئذ هذه النفس بهذا التحرر بالخلود .

اذا كانت عناصر البدن مؤلفة من اديم الارض ، فان النفس ايضا جلوة المعنى، جلوة تنزع الى تحقيق المعنى فيها كاملا . كما لو ان شعاعا متخللا الغيوم استجم فيه كافة خصائص الشمس ، مصدر انبثاقه ، فتحول بهذا الاستجمام الى الشمس ذاتها ، متفوقا على حجاب المكان .

كذلك تتجاوب تجليات النفس في وحدانية وجدانية ، فيحصل من هذا الاستجمام حالة تبدد بنورها الساطع فوارق التجليات التي انتهت اليها .

واذا كانت الحياة قد افترقت بالابدان الى نفوس ، فهي قد سهلت لها بهذا الافتراق نموها بتجاوبها تجاوبا رحمانيا ، وتفتحها عن بنيانها اعمق فأعمق ، وذلك بالاضافة الى تعاونها في اخضاع القدر لمشيئتها .

وما الزواج الا رمز هذه الوحدة البدائي (primaire) فالانسان (من انس) ، هو من الهيئة الاجتماعية كالبدن من الكون ، عنها يتلقى قوته ، وبعدى تجاوبه الرحماني مع ابنائها وبنيانها ، الذي ترمز اليه مؤسساتها ، يزهو : (ان من البيان لسحرا) .

ولئن كانت الحياة قد تعرقت بالبدن الى افراد متباعدين في المكان، فقد اوجبت عليهم التلازم والتعاون ، اتماما لحكمة هذا الافتراق ، تلازما بين الاجداد والاحفاد ، وتعاونا بين الاخوان .

كما انها عوضت على الانسان بخلود الامة ، لاستقلال الثقافة فيها عن المدنية ، تعويضا عن تلازم المكان والزمان في وحدانية نمو مظاهر البدن ذات الصلة بالقدر . وهي قد اوجدت اللسان ايضا تحقيقا لغايتها هذه ، فانتصرت على الزمان (الكتابة والعنعنات Tradtion) وعلى المكان (التجاوب الرحماني ، وتأثير الكلمة السحري بالبيان)، وعدلت به مؤسساتها ولخصت تجارب اجيالها .

لقد اختارت الحياة من بين تجلياتها الحسية الصوت، وهو طوع ارادتها، في انشاء لسانها ، بيانا عن بنيانها ، ورمزاً للتفاهم بين ابنائها ، ووسيلة للكشف عن ماهيتها ، بخلق ذاتها بذاتها ابدا .

على ان العادة (التداعي) تقتنص الصورة الصوتية ويفوتها الميل المكبوت فهي لذلك عرضة للانهيار. والتجاوب الرحماني بين ابناء الامة، وان ساعد على تحرير الكلمة مما هو دخيل على بنيانها، فان التحرير متفاوت بتفاوت الاصالة فيهم، والذكاء اللازم للكشف عن هذه الاصالة، وتخير الصورة التي هي اصدق للتعبير عن المعنى من بين المبدعات المتقدمة، والا التبست عليهم الصورة بالرمز، وانفصم ماهو نزوي عما هو ارادي فحجبت النفس بهذا الانفصام عن قراراتها وتغلب عليها التكلف وما يقتضيه من جهد، وانه على هذه النسبة تتميز الامة الاصيلة (البدائية) عن الهجينة المشتقة .

ففي الامة البدائية ذات الاصالة تنسجم اذن ارادة ابنائها الصادرين عنها والحاملين ميولها مع النزوة (spontanéité) في انشاء المؤسسات العامة (اللسان ، الاخلاق ، الديانة والفنون ..) كمعتلى عليه ترتقي النفوس نحو غايتها فتشف فيها العبارة سواء اكان في بنية الافراد ام في منحنيات هذه المؤسسات التي تعكس هذه البنية متبلورة، وبتجاوب النفوس في هذا الجو تجاوبا رحمانيا تفيض المشاعر وتغمر الكون نشوة وسرورا فتشتد فيهم اواصر الرحم .

يستقبل ابناء هذه الامة الحوادث متفائلين . وليس عبثا ان انجبت الامة العربية اكثر من عشرات الالوف من الانبياء، ولئن كان شعار كل من ابنائها أبدا البطولة ، فقد اختص كل منهم بالشاعرية اللائقة بروعة البطوله .

بينما تتنافر في الامة الهجينة عناصر البنية في الفرد وتسطو الرموز على مظاهر الحياة الاجتماعية فتكسف العبارة وتحجب النفوس بها عن حقيقتها فتترق حينئذ الحياة وتركد ويتغلب عليها الشكل والتكلف ، وتبدو فيها المؤسسات عديمة الانسجام بنشأتها وباتجاهاتها العامة، فتفقد بذلك الشخصية مقوماتها من الصميم ومن البيئة .

مدخل الى الكتاب

اولاً : يحتوي هذا الكتاب على اكتشاف اولي واساسي في تاريخ الفكر الانساني ، وهو نشأة اللسان او كيفية ايجاده . فاللسان العربي ، بفضل بنيانه الاشتقاقي ، مازال محتفظاً بنشأته عن الصور الصوتيـة البدائية ، وبتحول كافة كلماته عن هـذه الصور المقتبسة مباشرة عن الطبيعة ، وهو يلقي ببنيانه البدئي ضوءاً على علاقتـه بلغات الشعوب السامية من جهة ، واللغات الهندية الاوروبية من جهة ثانية ، فيهدينا بالنتيجة الى القرابة بين امم العرق الابيض بالاصل وبالوطن . وهو يساعد بنمطه الخاص ايضاً على تمييز الكلمة الدخيلة من الاصيلة ، وعلى التحرر بذلك من الركاكة والهجانة (الفصل الأول) .

ثانياً : يبين كيف يكشف بنيان هذا اللسان الاشتقاقي عن منظومات اسرة الكلمة ، حيث يكون الحدس قواماً للكلمات المشتقة عن ذات المصدر ، وموجها في صنعها مستعيناً على تفننه بصورة صوتية مستندة خصوصاً على وضاحة الصور المرئية الملازمة لها . ولما كانت الحياة نفسها

متفتحة عن هذه الحدس وكانت وضاحتها متعلقة بمدى اصابتها في اختيار الصور فان ذلك يهدينا الى ادراك الشبه بين بنيان البدن وهداية غرائزه في توجيه العلوم الصحية وبين هذه الحدس في بنياننا النفساني وهدايتها في انشاء ثقافتنا ، فنحصل بهذه الهداية على نهج اصيل في دراسة حياتنا الفكرية بحيث ينقشع الحجاب المزعوم بين الطبيعة والملأ الاعلى، (الطبيعة وما وراءها ، ميتافيزيك) وبفضل هذا النهج تتحرر المفهومات الاصيلة من التصرفات الفردية (arbitraires) الحاصلة من معنى الكلمة المتعارف ، والتعريف الذي يبنيه الذهن الفردي . (الفصل الثاني والثالث)

ثالثاً : يبين كيف نهتدي بتلازم الصور الصوتية ، المرئية في منظومة الاسرة الى بعث الخيال الاصيل ، فالوصول الى ينبوع الحياة بالنسبة للسان بحيث تتميز هذه المؤسسة المتمتعة بخلود الامة التي اوجدتها عن بنيان البدن الذي ظل متصلا بالقدر بانغلاق المكان والزمان في وحدانية نموه وخاضعا بهذا الاتصال للتحول . (الفصل الرابع والخامس)

رابعاً : نهتدي باصطفاء الصور واختيار الافضل منها الى علاقة الصور بالمعنى ـ البيان بالحقيقة ـ هذه العلاقة التي نرتقي بها الى معرفة نهج الحياة الاصيل ، النهج الفني الذي تعدل به الحياة بين بوادرها ، تحررا

من ظرف المكان بغية الوصول الى البصيرة . حيث تستغني عن الطبيعة قاعدة ارتكازها .

واخيرا تنتهي كافة مظاهر هذا الكتاب بفكرة « ان الحيوة معني ينشيء الصور والخيال من الصور ، على درجات متفاوتة بالفسحة والعمق ، تحقيقا للاية الساطعة من صميم الوجود . كأني بها تقتات بتجاو بها تجاوبا صادقا . وتنمو ... »

* * *

موضوع الكتاب

الفَصلُ الأوّل

اللسان العربي اشتقاقي البنيان. الصور الصوتية الطبيعية. الصور الصوتية البيانية. الصور الصوتية المدادية. اساس الصور الصوتية الاولية. اللسان العربي بدائي وبديء. علاقة اللسان العربي باللغات السامية. علاقته باللغات الهندية الاوروبية. اللهجات العامية. تمييز الكلمة الاصيلة عن الدخيلة.

الفَصلُ الثّاني

علاقة الحقيقة ببيانها الحسي. النهج الفني وتعادل المداد. البصيرة النظرة الرحمانية. الحدس والقدر. قابلية الحركة البيانية: الفتحة، والركون، الكسرة والنسبة، الضمة والفعالية، حروف العلة تفخم بيان حركتها، بيان الحروف العربية: الغين والغموض، السين والحركة

الباء والظهور . بيان علامتي الجزم والشدة . الجزم والاقتضاب . الشدة والكم في الحالة . بيان الكلمة العربية ووحدة الحدس . البيان في القواعد الجمع يفتح خصائص الفرد . بيان صيغة المجهول . بيان التصغير . بيان النسبة . المعنى والصورة . مدى البيان في اللسان العربي الرمز وضمور المعنى . البيان في الفعل الثلاثي بالنسبة الى حركته ثاني حرف . تشكيل الافعال الرباعية . البيان في صيغ الاشتقاق .

الفَصلُ الثّالِثُ

الكلمة مصدر انبعاث المعنى : تباين المعني بالصورة ، اسباب تيه الخيال ، الجمهور يحدد شطط الخيال ، اللسان العربي ينطوي على مقومات النفس كانطواء البدن على الغرائز . اللسان العربي ملخص بتجليات الامة ، الكلمة تحددها معناها باسرتها ، ذكاء وذكاء ، الابهام والبهيم ، الغموض والغوامض . العدان النوعي ، والحلم والعلم ، العبقرية وطريق الخلاص ، واللذة والتفاؤل في الحياة ، الألم بالتقاص السعادة بتذليل الصعوبات ، التعاسة بالعجز عن التحقق ، الفرح والصبوة . الحزن والانكماش ، انحراف الكلمة عن اسرتها ، التلازم بينها وبين

العربي صانعها ، الكلمة ونظرة الامة ، اسباب المترادفات ، الكلمة والموجة التاريخية ، الفضيلة بين الحيض والنظام . الساميون والآريون ، وحدة العرق الابيض ، وتلازم ثقافته ، النية والهمة ، نمو النفس ، المعرفة والحياة ، المعرفة الكونية والمعرفة الرحمانية ، البوادر والخيال ، النفس تتفتت بالحقيقة ، الهمة والمسؤولية ، عوامل الضلال ، الاصالة وتلازم المسؤولية ، النية والعادة ، العهد الذهبي ، انحلال المجتمع ، النبوة وتجديد القيم ، الفضيلة بين النبوة والعادة ، النبوة غاية الحياة ، الجاهلية عهد العرب الذهبي ، عوامل الانحلال ، الاسرة والتلازم ، الاصالة والانسجام ، بنية الامم الحديثة .

الفَصْلُ الرابِعُ

الحدس والعقلية ، قطبا الوجود ، التجلي والاستجمام ، تفاوت في الاحساسات ، الاساطير والوثنية ، الروح والبدن ، وجهتا الوجود ، النزعة والشرع ، الصوت ومداد البدن ، بعث المفهوم بالصورة المرئية ، دماغ ، الطبيعة صور الانسان المستفاضة ، الفن والصور ، المرئية ، الموازين والشعر ، تجاوب الحدس والصورة ، تلازم الصورة الصوتية

والمرئية في توضيح الحدس ، عبقرية كامنة ، ميزات الامة العربية ذهنيتها الوصفية ، المترادفات مبدعات فنية .

الفصل الخامس

نمو الكائن الحي ، نمو الامة وتلازم مظاهرها ، انفصام المدنيـة والثقافة في بنيان الامة ، خلود الامة وتقدم مؤسساتها الدائم ، اللسان العربي نفساني النشأة اجتماعي النمو ، الضمير حرفان : (ن) البيانية و (ه) الندائية ، الضمير والنزعة العربية ، التصغير والنزعة الفنيـة : تقدير سخري ، البيان في التصغير ، نزعات الذوق العربي ، النسبـة التلازمية ، والنسبة الاسنادية ، قواعد النسبة ، النسبة بين مرحلتين ، الكيفية ، الآية وخيالها ، المكان والزمان ، نشأة الظرف ، بيانـه ، المكان حجاب ، المكان اطار : يتعدى كل حـد في اتجاهي الفسحة والدقة ، الزمان والاستجمام ، الذهن العربي فنان ، اقسام الزمان ومرمى اتجاهاتها ، الامـدود والمرحلة التاريخية ، البصيرة والظروف والمكان واسم الالة ، اسم الوعاء ، الكثرة ، اسم المعمـل ، اسم المبالغـة ، العدد والمكان ، تجاها الكم والكيف في العدد ، اسم الوحدة : اسم

الجزء ، اسم القلة ، بيان التثنية ، نزعة الذهن العربي الاصالة ، الرشاقة الايجاز ، الجموع ، جمع السالم وتفتح المفرد ، جمع المكسر . وبيانه ، نزعة الذهن العربي فيه ، حدس القدر ، النظرة الرتيبة في الوجود الوحدة والمنظومة ، النفس والمعنى : بين الاسم والفعالية فهم الثقافة الحديثة بالاسم ، الاسم في الثقافة السامية ، الاسم السحر ، الارادة والقدر ، شأن الدماغ ، اتجاهان لن يتلاقيا ، بنيان الكون الرياضي ، انحلال الذهن الحديث ، الصبوة الى المعنى ، اتجاه المعرفة الرحمانية ، العرب واوروبا الحديثة ، البطل والقدر ، النور والظلمة ، الزمن والذهنية العربية بين الاصالة والتقدم ، الفعل بالنسبة لشروطه . النهج التقدمي في الذهنية الحديثة ، الاسم الامة البدئية الفعل والواقع ، صيغ الاسماء وبيانها ، نصف الوجود الثاني ، المذكر والمؤنث والفعالية والركون .

الفَصْلُ السَّادِسُ

مماثلة الانسان وفكرته ، الهمة والغاية ، الحياة فن ، العدان والقدر ، درجات المعرفة ، والانواع الحيوانية ، التطابق على البيئة ووجهة النظر ، الانسان على صورة الاله ، الاتصال بين الضمير والوجدان ، الخيال وانشاء

الشخصية ، والاختيار والمسؤلية.الخيال والمرتبة الانسانية.شاء ، وشي. العبقرية والنية الانتباه ومصمم الحياة . الاية والمفهوم . مخطط البدن . القيم الانسانية المجتمع الكامل.العقيدة والوضع الاجتماعي البدئي .الزعيم الضمير الاجتماعى الفن ، وحدانية فنية ، ووحـدانيةواجدة . الصور في لوحتها . والفكرة في رتبتها . الرسالة في المجتمع . العقيدة وفلسفتها . الأنانية والزهد . التلازم بالمسؤلية . التجاوب الرحماني . النبـوغ والعادات المصطنعة . البصيره والبصر . الاستطلاع الحياة معنى بديء النسبي والمطلق . الحياة تفسير بديء . نزعة الذهن العربي الفنية . حكمة النفرة من التكرار . العمه. النبوة والبطولة .

الفَصلُ السَّابعُ

الابداع . الحسن . الجمال . تلازم اجزاء الكلام وانسجامهـا في اللسان العربي . المنظومة والقانون . بيان الصورة وتأثيرها السحري. حرف الباء . الحرف الصوتي . الأنغام العربية وتلونها .

الفصل الثامن

الأمة وفلسفتها ، الأمـة آية ، طريق الحياة ، علاقـة الملأ الأعلى بالطبيعة . ماهي الامة العربية ، الامة الهجينة ، الذهنية العربية ، المفاهيم الانسانية الحرية ، الامر والقانون ، المساواة ، تمايز الامم غاية المدنية الحديثة ، الشعر عندالعرب ، المدنية العربية ، غاية الثقافة العربية .

• • •

الفصل الأول

منشأ اللسان العربي

اللسان العربى بدائي، وبَدِيء

(primaire) et (originale)

إنّ اللسان العربي اشتقاقيُّ البنيان ، ترجم كافة كلماته الى صور صوتية ، مرئيّة ، مقتبسة مباشرةً عن الطبيعة :

عن الطبيعة الخارجية تقليداً الاصوات الحاصلة فيها ، مثال ذلك : «تَرّ» ، «فَقّ» ، «خَشّ» ، «خَرّ» ، «زَمّ» . . . . .

أو عن الطبيعة الإنسانية بياناً لمشاعرها ، مثال ذلك : «أنّ» ،(أهّ)

١ ـ فمن «تَرّ» (وشكلها الرباعي «تَرْتَرْ») ،وهي الصورة المقتبسة عن سقوط الماء متقطعاً ، حصل فعلا الثلاثي والرباعي البدائيان : اما بتشديد الحرف الثاني ، وإما بتكرار المقطع ، (وهما عبارتا الفعالية) :

ومن هذا الفعل الثلاثي اشتق الذهن العربي الافعال التالية :

من لفظة «تَرَّ» اشتقّ : «تَرِهَ ، «تَرَكَ»، «شرَعَ» ، «تَرَسَ»، بتبديل الشدة بحرف ملائم للتعبير عن ذلك المعنى المتفرع،كما تبينَ من هذه الامثلة .

وهناك بعض الأفعال والمشتقات التي تكشف عن اتجاه الصور الصوتية، المرئية ، الأولى :

«تَرَّ» العظمُ: انقطع وسقَطَ ، «التريُّ» من الايدي : المقطوعة . «تَرْتَرَ» : استرخى في بدنه وكلامه. «تَرِحَ» المتراحُ من النوق التي يسرع انقطاع لبنها . «تَرَعَ» ، الاترَعُ من السيل ما يملأ الوادي . «تَرَكَ» : التركة والتريكة : البيض بعد خروج الفرخ منها . «تَرِهَ» تُرَّهات الكلام : سواقطه . «تَرَزَ» الماءُ : جَمَدَ . «تَرَى» : تراخى .

يستعين الذهن العربي ايضاً على التعبير عن المعنى المتفرع بتبديل أحد حرفي الصورة الصوتية (البدائيّة) بحرف متقارب بالصدور من نفس المخرج .من فعل «تَرَّ» مثلاً إمّا بتبديل «التاء» بإحدى شقيقاتها : «د» ، «ث» ، «ذ» ، «ط» ، «ض» ؛ وإما بتبديل «الرّاء» بشقيقها «ل» ...)

وإليك الافعال والمشتقات الحاصلة عن هذا الاصل مع الاحتفاظ بطابع الاتجاه الاساسي للصورة «البدائيّة» :

من «ترّ» بتبديل «التاء» بالحرف (د) ينشأ «درّ». (درّ) الحليب: كثرُ. «الدارُ» من النوق: الكثيرة اللبن. «المِدْرارُ»: الكثير السّيلان. «درأ» السيلُ عليه: اندفع. «الدّرب»: الأثر الملقى على الأرض (درب التبان). «درجَ» الرجلُ: مات ولم يخلف نسلاً. «دَرِخَ»: هرم. «درِدَ»: ذهبت اسنانه. «الدُّرْدُرِ» منبت الأسنان. «دَرسَ»: ذهبت آثاره. «درجت» الناقة: تكسرت اسنانها. «دَرَعَ» الرقبة: فسخها من المفصل.

«دَرْفَقَ» و «ادْرَنفقَ» في سيره: اسرعَ، «دَرِق»: (الدرقة): السحاب، «دَرْقَهَ» الرجل: وقص «دَرَكَ» المطرُ تابعُ قطره «الدريكة»: الاختلاط والزحام

ومن «تَرّ» أيضاً بابدال (التاء) بإحدى شقيقاتها ـ (الثاء) مثلاً ـ حصلت المشتقاب التالية، مع الاحتفاظ بالاتجاه الاساسي للصور الصوتية المرئية، البدائية:

ثَرّتِ العينُ والسحابةُ: غزُر ماؤها. «ثَرْثَرَ»: اكثر من الكلام في تَرَدُّدٍ وتخليط، «ثَرَدَ» الخبزَ: فتّه ثم بلّه بالمرق «الثّرِدِ»: المطر الضيف ثرِمَ»: كُسر سنّه الاصلي (ثرِيَ): نديَ ولان بعد اليبس

ومن (تر ّ) أيضاً، وبإبدال (التاء) بشقيقها الذال) تنشأ الافعال والمشتقات التالية :

(ذَرّ) : نثر . الذّرَ) صغار النمل (ذُرّية) نسل (ذَرِبَ) اللسان فحُش (ذَرَج) بالكلام : اكثر منه وأفرط (ذَرَفَ) الدمعَ : سال (المذْرَاف) : السيال (أذْرَتِ) العينُ دمعها : صبّته

ومن (تَر ّ) أيضاً بإبدال (الدال) بالحرف (ض) اشتق الذهن العربي الأسماء والأفعال الاتية : أضرَعت ، الناقة : نزل لبنها قبل الولادة (ضَرحَ) : شقّ (ضَرِتِ) البقرةُ : يبس ضرعها

وكذلك بتبديل الحرف (ر) بقريبه (ل) حصلت الأفعال والأسماء التالية (تَلّ) الحبلَ : أرخاه(تلعَ) و (طلع) :بدا وظهر (تَلّ) و(انثلّ) انصبّ «ثلِبَ» : الرجل : تكسرت أسنانه «ثَلِمَ» كسر الخ

ومنها ايضاً « دَلّ » ، « دَلَحَ » (أفرغ الحوض) ، فرس كثير «الدّلح» كثير العرق . « دَلفَ » ، دَلع » الخ

ومنها « ضَلّ » من (ضَرّ) أي هلك « ضلع » من (ضَرَعَ) ،

٢ ــ هاك مثالاً آخر : « فقّ » ، (وشكله الرباعي « فَقْفَقَ ») وهذه أيضاً صورة صوتية ، مرئية . مقتبسة مباشرة عن الطبيعة الخارجية . (وهي عبارة الماء الصوتية في حالة الغليان) فمن هذه الصورة

وبإضافة أحد الحروف المناسبة إلى الحرف « ق» حصلت الأفعال والمشتقات التالية :«فَقَأ» الدملة :شقها .« فَقَحَ » الجرو . فتح عينيه « فَقِهَ » للشيء : تفتحَ ذهنه له ، « فَقَرَ » الخرزة : ثقبها . (فقَلَ) البيدر :ذراه .(فقَمَ) : اتسع . وهكذا في (فقَصَ) و (فقَشَ)و(فقس)

و كذلك من نفس المثال ، بتحويل (القاف) إلى احدى شقيقاته الحاصلة من نفس المخرج ، نجمت الافعال والمشتقات التالية :

فبتحويله الى (ج) مثلاً حصلت:«فجّ» و «فجَرَ» أي . شقّ وأظهر «فجا» . ومنها الفجوة ـ بنفس المعنى تقريباً . «فجَسَ» الشرّ : ابتدعه «فجَلَ» : (الأفْجلُ) المتباعد القدمين . « فجَمَ » . (الأفجم) من ذهبت أسنانه.«فجَنَ» . فتح الباب . وهكذا « فجَعَ »و «فقع» .الخ

وبتحويل «ق» الى شقيقه «ك» ينشأ : فكّ الشيء :أبانَ بعضه عن بعض ، نكَرَ : فكّ الأفكار والمفهومات فكَعَ : تباعدَ ، فكِهَ فكَلَ الخ

٣ ـ وكذلك عن خَشّ ـ وهي صورة صوتيه مرئية ، حاصلة عن حركة في عشب يابس ـ بإضافة حرف ملائم للتعبير عن المعنى المتفرع حصلت الأفعال والمشتقات التالية:

فمنها خشُنَ : غلُظَ وخشَبَ : جفّ وخشَرَ ـ خشرَمَ ـ خشعَ

أي خشي من الدخول ـ خشف ـ خشل ذل : وخاف ـ خشم ـ أخرج صوتاً من الأنف .

ومن خش وبتحويل الخاء إلى إحدى شقيقاتها ـ ح ، ق ، ع ، ه نشأت الافعال التالية ، منها ـ قش ـ و ـ قشر ـ و ـ قشع ـ و ـ قشف الخ

ومن خش أيضاً ، بتحويل الخاء إلى حاء ، حصل ـ حش والحشيش والأحشوش : الولد اليابس في بطن امه ـ وحشأ وضع في الاحشاء وحشد الزرع ـ نبت كله وحشر و حشرج أي غرغر عند الموت وحشف : يبس وتقبض حشك : ضايق حشم : انقبض

ومن مشتقاتها أيضاً : عش و العش وعشب وعشر ـ أي التعشير والاعشور : ماصلب مسلكه من أرض او طريق وعشق وعشم ـ ومنها أيضاً هش الورق : جف ويبس ، وهشر و هشم : كسر الخ

٢ ـ لم يقف الذهن العربي عند استعارة الصور الصوتية من الطبيعة الخارجية ، بل استعان أيضاً بالعبارات الصوتية المجهزة بها الطبيعة الإنسانية وإليك المثال ـ من عبارة أن أي الانين الداخلي ـ وهي عبارة التوجع أنشأ الذهن العربي الأفعال والمشتقات التالية :

بإلحاق الهمزة أنشأ «أنا» وبإلحاق التاء «أنت»، «أنتما» الضمائر الخ

ومنها أيضاً «أنَّ» تأوَّهَ، الأنين، «وأنبَ» عنّف ولام - وهي بعكس أنّهَ، أي ترضاه و«أنِس» وأنِفَ والأنام و أني: دنا وقربَ

وبتحويل الهمزة إلى احدى شقيقاتها العين أو «الحاء» أو «الهاء»، نجمت أفعال ومشتقات عدة منها. «عَنّ» ومنها العنين، عَنّ الشيء ظهر أمامك عَنبَ، عَنجَ، عَندَ، عارض، عنسَ، عنفَ، عنا، بتحويل الهمزة الى «عين»

«وهَنّ» أي: بكى. هنا بعكس عَنا، وهَنفَ: داعبَ، بتحويل الهمزة الى «هاء»، وحنّ ومنها الحنين وحَنا وحنثَ بتحويل الهمزة الى حاء الخ

٥ - وكذلك من عبارة «أهّ» الصورة الصوتية البيانية لشعور التوجع صنع، الذهن العربي بطريقة الإضافة والإلحاق المشتقات والافعال التالية أهَّ، وأهلَ، وأهِبَ

ومنها، بإبدال «الهاء» خاء، اشتقت الكلمات والأفعال الاتية أخ، أخوان توخى، تآخ .. الخ.

٣ - لقد نهج الذهن العربي في تكوين الكلمات البدائية بالإضافة الى النهجُ الطبيعية السابقة، أي (ازدواج الصورة الصوتية بالمرئية أو الحالة النفسانية بعبارتها). نهجاً اصطلاحياً، فالحرف الأسهل للصدور والأبرز للظهور يستقطب الصورة التي تستدعي الاهتمام، فيشير اليها بكلمة

ومن هذا التداعي صنع الذهن العربي الأفعال والأسماء ، مثل ، بابا من حرف الباء و«أب» «وأب» اليه أي اشتاق . و أبه أي فطن ، و «الأبهة» النخوة والعظمة ، وأبى : ترفع عن الدنايا ، وكذلك من حرف ما صنع الافعال والأسماء الاتية: ماما ، أم ، أم أي قصد ، الأمة ، الإمام . أمد ، أمل ، أمر . الخ

وبالإضافة الى المناهج الاساسية في صنع الكلمات البدائية ومشتقاتها وَجدَ الذهن العربى الاصول التي تنطوي عليها هذه المناهج وهذه الاصول قد تساعدنا على الكشف عن ماهية هذه المناهج فإن بعض الصور الصوتية ترافق حركة عضلات الفم ، وتستقطب العمل الذي تنجزه هذه الحركة فتعبر عن ذلك بكلمات ذات بنيان مدادي Rythmique كعض وقض و بت و بد .. وهنا يسير الذهن في صناعة المشتقات على نفس النمط السابق أي بالحاق حرف ملائم للمعنى النزاع الى التوضح ، أو بتحويل أحد حرفي الكلمة بحرف من نفس المخرج ، مع المحافظة بالطبع على المداد Rythme الاساسي فمن «عض» مثلا وبالحاق حرف ملائم للتعبير عن المعني المتفرع اشتقت : عضب : قطع وشتم . «عضبر» استأسد . «عضد» الشجرة : قطعها ونثر أوراقها «العضرس» البرد «العضرط» الصعلوك المقطوع «عضلت» الارض بأهلها اشتدت . «عضن» شم عضا «فرق» .

ومن «عضّ» بتحويل العين الى احدى شقيقاتها اشتقت ، «قضّ» ثقب «انقضّ» انكسر . «قضى» الشيء : أكله قضبَ ،قضم ،قضعَ : أي مزق قضفَ :قطف ،قضقضَ . كسر الخ .

ومنها أيضاً بتحويل العين الى «هاء» اشتقت «هَضّ» الشيء : كسره وهضمَ ..الخ ومنها أيضاً :غضّ الطرف : كسره وغضبَ أي كسرت نفسه فاهتاج ، وغضفَ :ومنها أيضاً :قطّ و قطع و قطب وقطف وقطل وقطم ومنها أيضاً :قدّ الشيء قطعه و«قدرَ» قسمَ ووزع وقدسَ قطع القدس خجر مقطوع .القدّوس :الشديد وقدع تقادعوا أي تقاطعوا بالرماح ، وقَدفَ و القدموس الصخرة العظيمة

ألا ينطوي الهيجانُ وعبارته (الحركة العضلية والكلمة المقترنة بها، الصورة المرئية والصوت المرافق لها على مدادمشترك ؟ المدّة والامتداد علاقة الزمان بالمكان ان المِداد قوامُ الصورة ،ومثبتها في الدماغ ،وباعثها الى الذاكرة عند الحاجة ، فهو يعدل تجلياتها المختلفة مرئية صوتية الخ ، وهو من الحالة النفسانية بمثابة البدن من النفس

ولما كانت الحياة تنمو باتجاه الباصرة (حس البصر) فإن الصور المرئية بالنظر لدقتها Nuance ووضوحها في التعبير عن المعنى قد سطت على اللسان وطبعته بخصائصها

ملاحظة :

١ ـ ان اللسان العربي بالنظر الى نشأته (صور صوتية مقتبسة عن الطبيعة مباشرةً) وبالنظر لصناعته أيضاً تجلى العبقرية العربية في كافة أصوله أي في منظرمته الصوتية وفي قواعده النحوية وفي مفرداته هو بدائيٌّ وبدِيء. وكلُّ كلمة أو قاعدة تحمل طابع عبقريته أياً كانت فهي مستعارةٌ منه .

٢ ـ يتبين من سبر الحوادث التاريخية أن ما يبدعه الإنسان من أفكار ومؤسسات وما يخترعه من آلات ينتقــل من أمة الى أمم أخرى ، ومن اقليم الى اقاليم شتى ، حتى يشيع هذا الاختراع أو ذاك الابداع في العالم ذاتَ المرحلة التاريخية المشتركة

واذا كان تطبيق الالة على الطبيعة، وما ينتج عن هذا التطبيق من رفاهية، يشفع بانتشارها وتعميمها ، فإن الأفكار والمؤسسات الاجتماعية أيضاً تجيب: إما على وضع مشترك دعت إليه تطورات المدنية، وإما على بنيان انساني مماثل تتمخض عنه هذه الامم، أعني أن الانظمة الاجتماعية كالديموقراطية في مرحلة المدنية الحديثة، والفروسية في القرون الوسطى، قد انتشرت في الأقاليم وبين الامم ذات المدنية المشتركة

وكذلك الديانات السامية كاليهودية والمسيحية والأسلام قد عمت

أيضاً بدورها أمم العرق الابيض وحتى انها قد تعدت حدود هذا العرق الى العروق الأخرى

ان الديانات القديمة كانت تنبت محلية (Local) فلكل من الإقليم والمدنية حتى والعائلة ديانته. وما بدت الديانات السامية ذات الطابع العبقري أي التي وضعت من قبل موسى وعيسى ومحمد) هذه الديانات التي استجمعت فيها النزعة الدينية فسطع بهاؤها وبهرت العالم القديم فما هي ان بدت حتى تقلصت تلك الديانات المحلية المتكونة باشتراك الجمهور (anonyme) وبليت في ظل هذه الديانات السامية. ومع ذلك كله فإن الأمم والجماعات التي تخلت عن دياناتها عندما ظهر ما يعبر عن نزعتها الدينية بصورة أكمل قد أخذت تحني بتأثير عبقريتها الخاصة من هذه الاشكال المفروضة عليها سواء في الديانات أو في الأنظمة المعبرة عن وضع تاريخي معين فتحاول توفيقها مع مصمم بنيانها الخاص. وهذا ما يكشف لنا عن تطور المسيحية والاسلام والديمقراطية والفروسية عند الامم المختلفة

ألم يحدث في إنشاء اللغة ما قد حدث في ابداع الديانة وايجاد النظم الاجتماعية ؟

إن الانسان مجهز بغريزة الكلام كما هو مجهز بالغريزة الدينية، ولما كان الحظ بين الامم والافراد غير متساوٍ في ايجاد الصور المعبرة عن

هذه الغرائز، والمحققة لها. فقد فادت الأمم التي هي أكثر من غيرها حظوة من هذه القابلية سواها على شفقها. فالقواعد المشتركة بين اللسان العربي ذي البنيان البديء واللغات الهندية الأوربية من جهة واشتراك المفردات أيضاً بالإضافة الى القواعد النحوية بين العربية واللغات السامية من جهة أخري، تكشف عن علاقة هذه الامة العربية بهذه الشعوب وتلك الامم فتؤيد وحدة النشأة اللسانية في هذا العرق، وتبين فضل الأمة العربية عليها، لايجادها الالة التي امتاز بها الإنسان على الحيوان، والتي شيد بنيانه النفساني والاجتماعي بالاستناد عليها.

وبذلك يصبح عندئذ فضل الامة العربية (مصدر الشعوب السامية على سير المدنية بإبداع الديانات الآلهية، وايجاد اللغة.

وإذا كانت الديانات من مُبدَعات نوابغ الساميين، فإن اللغة هي من مُبْدَعات أمة تمتع أبناؤها بالنبوغ في هذة الناحية.

ألم تكن جماعات العرق الأبيض متجاورةً بالمنشاء كما هي متقاربة بالجنس ؟ وهكذا فان الأكثر استعداداً من بينها على إيجاد الصور الصوتية التي هي للانتشار كانب أقرب حظاً في تعميم لسانها الذي اصبح بطبيعة الحال اكثر انتشاراً.

ولقد حصل لانتشار اللغة وتعميمها في فجر التاريخ ماحصل للأنظمة

الاجتماعية أخيراً، وللديانات السامية من قبل، وكما يحصل للاختراعات الفنية دائماً. فان كل جماعة تجيب على هذه الصور المتبناة بعبقريتها، فتحورها تدريجياً إلى ما يتفق وطبيعة مزاجها. وبذلك تتطور الصورة وتختلف عما هي عليه في الجماعات الاخرى. واذا أضفنا إلى هذا السبب الأصلي في انتشار اللغة الظروف المحيطة بهذه الجماعات خلال تطورها التاريخي وما استدعت هذه الظروف من معان خاصة تبينت انا عندئذ أسباب اختلافها.

٣ - إن دراسة اللغات السامية من وجهة نظر الاشتقاق، ودرجة تفرعه، ومدى البيان في الحروف والحركات، في الكلمات والأعراب ثم دقة القواعد النحوية، كل ذلك يكشف لنا عن نسبة صلاتها باللسان العربي. ثم إن هذه الدراسة تهدينا أيضا الى كيفية تكوُّن هذه اللغات بانحلال اللغة الفصحى، وذلك اما بتأثير انتقال شعوب عربية فجأة الى مرحلة مستحدثة من المدنية، بحيث تتفكك روابط الاشتقاق، فتشذ الكلمات عن منظومة معاني أسرتها، ويُطمس على معظم القواعد النحوية، وتفقد الكلمة والجملة بيانها، وتقترب حينئذ من شكل اللهجات العامية: وإما بتأثير الشعوب الأعجمية المستعربة أو طغيان الهجانة في الدم العربي، فالتداخل في الميول التى يتألف منها قوامُ الأمة العربية

(مبدعة لسانها تعبيراً عن ذاتها) . وقد تنتهي هـذه الدراسة بتحديد ذينك العاملين : (الهجانة بالدم والثقافة) في تكوين هذه اللغات .

ألا تعطينا «اللهجات العامية» صورةً عن كيفية تكوُّن اللغات السامية بانحلال الفصحي ، بحيث تتبدل مواقع الكلمة في الجملة : (تقدم الفاعل على الفعل . فقدان الاعراب منها ، التباس الجنس بين مذكر ومؤنث ، ضعف الجموع فزوال البيان من الحروف والحركات والكلمات فتفكك الاشتقاق فاستقلال الكلمة عن منظومة معاني أسرتها .. الخ)·

٤ ـ لقد خصَّ العربي لهجته بحق بكلمة «لسان» ، هذه الكلمة المؤلفة من الحروف «ل» ، «س» ، «ن» الرشيقة ، وأطلق على اللهجات السامية كلمة «لغة» من «لغا» «يلغو» وما يتضمن حرف «الغين لما فيها من غموض وابهام وأطلق على اللغات الأعجمية كلمة «بَرْبَرَ» لما فيها من ركاكة .

٥ ـ أن الكلمة التي لايمكن ارجاعها إلى صورة صوتية ، مقتبسة عن الطبيعة وفي حدود الصناعة العربية ، لهي كلمة دخيلة على العربية .

الفَصْلُ الثّاني

البيان الصوني في اللسان « العربي »

تتجلى الحقيقة للنفس وتتوضح لها ، مثلما تتسع دائرة اضاءة المصباح باقتراب هذه الدائرة من الناظر اليها ، وبينما يتحرك المصباح باتجاه الناظر فالحقيقة مستقرة وثابتة ، والنفس هي التي ترتقي اليها مستندةً برقيها على الصور الحسية ، والأفكار التي تحملُ هذه الصور .

فالنفس ترتقي اذاً نحو الحقيقة بالاستناد على المفهوم الذي انشأته من الصور الحسية والافكار التي تحملُ هذه الصور على درجات متفاوتة ، محتفظةً بنسبة تلازمها وتعادُل مدَادها ، كما تُكبرُ الصور الشمسية المستدقة على مقاييس مختلفة ، تلك الصور التى تكون مقتبسة من آفاق عالية فتعيد عند التكبير الى الاشياء المأخوذة عنها نسبة تلازمها الاصلي والنفس وان ارتقت الى الحقيقة فهي ليست منفصلةً مطلق الانفصال عنها ، بل ان الحقيقة لهى من النفس بمثابة الجنين من أمه ، فحينما تنعقد الحياة في الرّحم على الرُشيم ، يأخـذ المخطط الذي ينطوي على مِـدادِ

الرشيم بالتفتح ، وبتلازم عناصره المتفتحة ينتقل الجنين الى طفل فصبي الى ان يستكمل شروط نموه بالشيخوخة . ان الحياة (أو المعنى الذي اختار هذا المداد بدنا يعبر به عن وجهة نظره في الوجود (تلازم نمو هذا المداد أو البدن منتقلةً من الغموض والابهام الى الوضوح ولما كان مصمم الحياة في الانسان يتعدى حدود بدنه فانه خلق عالماً من رموز (المؤسسات العامة : كالعرف ، والاخلاق ، والفقه واللغة .. الخ) تحقيقاً لما ينطوي عليه . وان الحياة ، عندما تستوفي شروط تحققها باستجمام هذه التجليات المقابلة لتلك المؤسسات العامة ، ينكشف لها بنيانها بالبصيرة ، أو النبوة ، (وهما شيء واحد) . فمصدر الانبثاق هو إذاً نظرةٌ رحمانية في بنيان الوجود (الحياة والكون) وهذه النظرة إما أنها بصيرة (مستنيرة بنور ذاتها حيث المعرفة والوجود متآحدان) تسبق حينئذ تجلياتها وتوجهها ، وإما انها حدس يلتبس فيه المعنى بالصورة ، وبتساندهما (المعنى والصورة) وتجاوبهما يتحقق : أي أن الصورة تستدعي المعني إلى الوضوح والمعنى يلقي شفقه على اتجاهات الصورة فيستقطبها وبها يتحقق . ولكن القدر ، (وهو تلازم الحوادث خارجية كانت أو داخلية) يكوّن تياراً من التلازم المتدافع المظاهر فيغمر بنزعته المتدافعة هذه النظرة الرحمانية أو الحقيقة ، ويكسفها

بوجته عن النفس، كما تكسف الغيوم النجوم عن الرؤية . ومع ذلك فقد تظل بعض الأشعة مطلة من خلال هـذا الحجاب السديمي فيسرع الذهن حينئذ الى تثبيتها، بمفهوم مقتبس الإطار من المكان، وما الحياة المتجلية في هذا المفهوم إلا ذكرى تلك النظرة تحتفظ بهـا كما تحتفظ القطعة الفنية بمشاعر الفنان مبدعها.

تلك النظره الرحمانيـة في الوجود متحررة من علاقات الزمان والمكان، ومن الصور التي ينطوي عليها هذان الظرفان.

أما في الحدس، فصيطفي المعنى الصور المحققة له من بين البوادر البدنية، التي هي أكثر صلاحاً لوجهة نظر الإنسان في الوجود، فيتخذ الأصوات الموافقة لهذه البوادر، والمنطوية على مداد مشترك معها، فيصنع منها الكلمات وهذه تصبح بدناً له. ولما كانت الحياة تنمو بتجاوب بين المعنى وتجلياته، بين الملأ الأعلى والطبيعة، فالصور التي تتجلى بها هذه الطبيعة للانسان هي على الخصوص مرئية، مما أدى إلى تفرع الصور الصوتية ونموها بتداعيها مع الصور المرئية. فالكلمة تحتفظ ببيانها بنسبة ماتشترك هذه الصور الصوتية، المرئية، بالمداد الأصيل (مداد البوادر التي اختارتها الحياة بدناً لها).

قابلية الحركات البيانية :

في الكلمة العربية ، تحتفظ الحركة بمدادها الأصيل ، فتعبر بذلك عن معناها البدائي ، فالفتحة الحاصلة بحسب مخرجها عن ركون اللسان عند صدور الصوت ، تعبر على السكون أو الاندراج في المكان . والكسرة الحاصلة عن صدور الصوت ، بكسر الشفتين ورجعتهما تعبر أيضاً عن النسبة ، أو عودة الحالة الى الذات . وكذلك الضمة الحاصلة عن تدافع الصوت عند خروجه تعبر عن الفعالية المتواصلة ،والدائمة .

ففي الاعراب (أو وظيفة الكلمة في الجملة)مثلاً يبدو بيان الحركات بصورة مطردة . فالفعل المضارع ، ذو الفعالية المتواصلة ، يعرب مبدئياً بالضم . وهي عبارته الطبيعية . وكذلك الفاعل يعرب أيضاً بالضم ، بينما نرى المفعول ، لكي يحتمل فعل الفاعل ، يعرب على الفتح .وكذلك الفعل الماضي ، يدخل في الركون باعراض الوجدان عنه ، فيبنى على الفتح بياناً لذلك : أما الأمر والنهي فانهما بحسب طبيعة مفهومهما يجزمان . ويعبر عن التوكيد بالشدة ليكون هناك تلازم بين العبارة والمعنى المقصود بيانه . ويعبر عن المجرور أيضاً بالكسر تخفيفاً للنسبة .

تحتفظ الحركة ببيانها في بنيان الكلمة أيضاً ان لم تعترها ضرورة صوتية . وإن صيغ الفعل الثلاثي ، كما أوضحنا ذلك في مبحث المشتقات

الفعلية ، حاصلة بالنسبة لحركة ثاني حرف منه . كذلك نجد هذه القاعدة على الأغلب في أسماء المصدر والصفات .

ولما كانت حروف العلة بحسب شكلها وكيفية تكونها ، تفخيماً للحركات المقابلة لها أي أن « الواو » تفخيم الضمة ، و « الياء » تفخيم الكسرة ، و « الألف » تفخيم الفتحة ، فهي تعبر ايضاً عن نفس المعنى بصورة مفخمة : فَهِم ، فهيم ، نبِه ، نبيه ، مِتئَم ، متئام .. الخ .

٢ — يتمتع الحرف العربي أيضاً بقيمة بيانية ، وإن تحددت هذه القيمة بمنظومة الكلمة الصوتية ، ألا أن بعض الحروف يقوم في هذه المنظومة بمثابة نبرة الايقاع في تعيين بيان معنى الكلمة ، ويفي الحرف الأول من الكلمة على الأغلب بهذه الوظيفة .

وها نحن نورد هنا بعض الأمثله المقتبسة من حروف : غ ، س ، ب ايضاحاً لوجهة النظر هذه ، ونترك للاخرين إتمام هذا الموضوع .

ان حرف « غ » هو ابلغ بياناً من كافة الحروف الأخرى ، فبحسب مخرجه وما يلقى من صدى في النفس عند خروجه يعبر عن معنى تنطوي عليه تقريباً كافة الكلمات التي تبتدىء به ، ألا وهو : الغيبوبة والغموض . منها : « غَبّ » والغَبُّ هو الغامض من الأرض ، و « غَبَر » مضى . و « غبش » : الليل أظلمَ . و « أغبطَ » النباتُ : تدانى وغطى

الأرض . و « غبن » الغبانة ضعف الرأي والنسيان . و « غبى » : الغبوة الغفلة . و « غبي » الشيء : ستره . «غذت » غط . «أغدف» الليلُ : أرخى سدوله . و « الغدراء » : الظلمة . و « غرب » النجم : غابَ . و « الغرْبيب » : الأسود الحالك . وهكذا : « غرز » و (غرس) و (غلف) ، و (غرق) ، «غزا» الشحم قلبه : غطاه و «غشم» الليلُ : أظلمَ . و«أغشى» : غطى . و « غضّ » ، و «تغاضى» و «غطّ» و (غطى) و (غضب) و(غضي) ، و (اغلولب) العشبُ : تكاثفَ ، و (غلظ) ، (غلظ) ،و (غاص) و (غمد) ، و(غمّ) ، و(غمر) و (غمس) . الخ

أما حرف (س) فيعبر حسب صدوره عن معنى الحركة أو الطلب وهو يجدد المضادع نحو المستقبل ومنه : (أسأرَ) الرجلَ سار ليلته كلها ، و (سأل) : طلب ، (وسأى) ، غدا وركض) ، و (السبب) : الذريعة وما يتوصل به الى غيره ، و (السُّبأة): السفر البعيد ، وانسبت الشيء امتد ، و (سبح) الرجلُ : أبعد في السير ، و «سبر» : تعمق) و (سبسب) الماء : أساله ، و(سبق) و (سبل) و (أسبل) و ستل) القوم : خرجوا متتابعين واحداً اثر الواحد ، و (سته) الرجل : اتبعه و « شتا » : اسرع ، و « الساجع » من يسير نحو القصد بلا ميل ، و

« تسحسح » الماء : سال من فوق ، و « سخرت » السفينة : جرت وطاب لها المسير ، و « انسدل » الشعر : ارتخى ، « سرب » الماء : جرى . « سربخ » الرجل: مشى رويداً رويداً . « سرحت » المواشي « سرطع »: عدا عدواً شديداً من الفزع . « سرع » . «السرمد».سعم البعير : سار سريعاً . « سعى » و « الساعي » و « سف » الطائر ، و « سفر » و «سفل» و « سفى » أسرع في الجري والطيران ، و «سقط» و « سكع » مشى على غير هداية ، و « سل » و « سلت » و « سلأ » و «سلحف» و « سلس » و « سلسل » وسلعن » في عدوه و«سلك «السمور » من النوق : السريع ، «سمسم» الثعلب عدا «سما» : علا وارتفع ... « ساج ، «سار » ساح » (سال) . . الخ .

واما حرف«ب فانه، بالنظر لسهولة حصوله ، يدخل في منظومات صوتية أي « كلمات» ذات معان مختلفة، ومع هذا فإنه يتغلب عليه معنى « الظهور » و «الوضوح» ،وهو المعنى الأكثر توافقاً مع مصدر خروجه من الفم ، منها :

« بدأ » (وهي من (بدّ) ، وهذه من (بتّ) ، فسرعان ما اتجه المعنى نحو الظهور) ، « بدح » بالسر : باح به . « بدخ » . «بدر». (بدع) . «بدن» . (بده) . (بدا) . بدىء . بذخ : عظم شأنه

(برح). برزَ . برَعْ . بَرَعمَ . برق . بسقَ . بسم . بَزغ.
بَزَعَ . بَضعَ . بَقلَ بلجَ .. وهكذا .

البيان في علامتي الجزم والشدة

الجزم هو ادغام حرفين وتحريكهما بحركة مستدقة . فتبدو في هذه القاعدة احدى نزعات اللسان العربي الأساسية وهي تحوّلُ حرف العلة إلى الحركة المقابلة له والحركات مازالت محتفظة بالشكل الاصلي .فالضمة تصغير (و ، والكسرة تصغير «ي» والفتحة تصغير «ا». فهذه النزعة إلى الاقتضاب ، واقتصار الشكل تشمل كافة عناصر اللسان : الحروف والمقاطع ، وبيان الكلمة حتى والاسلوب ألا يتحول حرف ل «من» «ألْ» الى طبيعة الحرف الشمسي الذي يليه ، وحرف «س» إلى حرف متجانس معه؟ كذلك حرف نون إلى «ل» م ،«و» ، «ي»؟ فكل هذه نتائج لهذه النزعة .

ان الاسماء المركبة واكثر الافعال الرباعية حصلت في الغالب من هذه النزعة ، مثال ذلك : هل رِأيت ، أن يقتل بادغام النون بالياء ، عما بادغام النوز والميم ، حتى أنّ سَلحفَ من سلّ ولحف . الخ ،

فعلامة الجزم تفيد اذاً كما تعني كلمتها الاستجمام أو تحديد الفعالية . .الخ .

تعريفها : هي العبارة الكمية عن الحالة :

(EXpession quantitative de la qualité)

وهي تفيد أن حرفاً مزدوجاً ينقسم إلى جزء ساكن مدغم مع الحرف المتقدم له وملزم بحركته ، وإذا صرفنا النظر عن الشدة الحاصلة عن ضرورة صوتية خاصة ببنيان اللسان الشكلي ، فهي تعبر دائماً عن الشدة المنطوية على «الكمّ» أو بالأحرى بيان الكمّ نفسانياً ، فتتحول الصورة الصوتية الثنائيه المقتبسة من الطبيعة إلى فعل بادخال الشدة إليها ، مثال ذلك : زمَّ ، ضرَّ ، فقَّ ، شمَّ ... الخ . وصيغة فَعّل تفيد الكثرة في طبيعة الفاعل او المفعول : طوّف ، كسّر . وتدخل في صفات المبالغة مثل كذّاب فتفيد المبالغة .

البيان في الكلمة العربية

ليست الكلمة العربية بيانيه باجزائها (حروفها ، حركاتها ،علاماتها) فحسب ، بل انها وحدة تتفاعل فيها هذه الأجزاء تعبيراً عن المعنى الذي اختارها بدناً له ، وان بيانها ليبدو بنسبة ما ينطوي مدادها على فحه

تجاوب اجزائها، أي ان الكلمات ذات المقاطع العديدة هي اكثر بيانًا من الكلمات البسيطة ذات المقاطع القليلة . وقد اوضحنا في مبحث المشتقات الفعلية علاقة الصورة بالمعنى ، وبينا أيضًا في الفصل الاول كيفية اقتباس الصور الصوتية «وهي مادّةُ اللسان» من الطبيعة وكيفية صنع الكلمات من هذه الصور ، وذلك عندما ينزع المعنى إلى التوضح فالتفرع بتعدُّل بنيان الكلمة إما بتبديل أحد حروفها ، وإما باضافة حرف عليها ، وذلك حسبما يقتضيه مداد المعنى المتفرع . ونحن نورد هنا بعض الكلمات المبتدعة بيانًا لقابلية الذهن العربي الفنية : دَرْدَبيس ، شَرْعَبة ، شَرْدَبي ، زَمجَرَ ، الشّعْشَعان ، عَنجرَ ، عَندَليب ، الهزْرُوف ، الهزربان ، فرْطخ . خَرْطَبيل .

البيان في القواعد

بالجمع تبرز خصائص المفرد، فيجمع المذكر السالم بتحول التنوين إلى «ون» بالرفع ، وإلى «ي ن» بالجر : مؤمنٌ ، مؤمنون ، مؤمنين . وفي المؤنث السالم تتحول التاء المربوطة إلى تاء طويلة ، ويتبع هذا التبدل تعديلٌ بحركة الفتحة المناسبة للحرف المتقدم على التاء إلى «الف فتصير « المؤمنة مثلاً : مؤمنات .

وفي صيغة المجهول ، تُنقل حركةُ الفعل إلى الحرف الاول من الفعل بياناً لتحمله فعل الفاعل ، وبكسر الحرف الثاني « علامة النسبة » في الماضي ، وأما في المضارع فتفتح هـذه الحركة دلالة على عدم استكمال فعل الفاعل .

وفي التصغير يضم أيضاً الحرف الاول بياناً للفعالية . ويلزم الحرف الثاني الفتح مع ياء اضافية، فيتولد في الذهن خيال القسر او التقاعس عما بدأ به : نهر نهير ، كلب : كليب .

وأما في النسبة فان الياء الملحقة بالاسم هي علامتها الطبيعة : دمشق دمشقي ، علم علمي ، عقل ، عقلي الخ .

يتبين من الامثلة المتقدمة أن الكلمة العربية مؤلفة من صورة بما تتضمن هذه من صيرورة « تحولاتها الاحساسات الصوتية » ، ومن وضع « قوام تآلف هذه الاحساسات » ، وان هذه الصورة هي سمة المعنى الملقاة على المكان ، فتشف عنه اجزائها وبمنظوماتها ، وهي تساعد باتجاهات نموها على دعوة المعنى إلى التحقق فالازدهار . فتصبح بذلك الكلمة العربية ، ذات نزعة fonctionnel et odynamique ، مثلها كمثل الخلية ، فكما أن هذه تنطوي على الحياة وتعبر باتجاه منحنيات نموها ، عن وجهة نظر الكائن الحي في الوجود ، وثبت هـذه النظرة فيها كي

تستدعي إلتها النسغ فيجري في هذه المنحنيات .ان منظومة اللسان العربي الناتجة عن تلازم وانسجام في : الكلام والنحو والنغم : (Vocabulaire ; syntax ; phonéme) تكون سطوحاً منحدرة تتجلى بها فكرة الأمة ،فتوفر هذه السطوح على الأجيال جهود الاجداد المنصرفة في انشائها ، وتقيهم المحاولات الفاشلة ، بحيث أن الفرد يستأنف عمل بناء شخصيته من هذا التراث مضيفاً إليه «مُبدَعاته» ، فرتقياً ابداً نحو غايته ، وان هذا الطابع، طابع الخلود (أي الانبثاق والنمو ، انبثاق المظاهر عن مبدأ الحياة، وتلازم هذه المظاهر وانسجامها) ، يبدو على العقلية العربية وعلى كافة المؤسسات التي تتبلر فيها هذه العقلية . فنفس العربي تتأجج حينئذ وتذكو ، بتوافق الميول التى تنطوي عليها مع هذه المؤسسات المعبرة عنها . ومَا اللسان العربي من الأمة التي أنشأته إلا بمثابة الانسجة من الكائن الحي يشف منه المعنى بجملته وبأجزائه ،فيبعث في نفس العربي بفيض تنتهي به الحياة بتحقيق غايتها : البطولة .

بينما تكون الكلمة في الامة المشتقة دلالية ، واصطلاحية ، يلتصق بها المعنى عرضاً مثلما تلجأ الروح المتشردة إلى الجثة ، فتستوحش منها واللغة المشتقة بمثابة بدن استبدلت فيه الاعضاء المعطوبة باوائل مقتبسة عن العالم الخارجي ،فهو وان ظلتَ الحياة بجملتها (الاسلوب) فهي تنحسر

والميل المقابلة لهذه الاعضاء تضمر ، فتخس رباثبها ، ويخضع تفكيرهم الى التداعي ، وتتحكم فيهم المسحة الركونية : état statique .

الفعل الثلاثي بالنسبة الى حركة ثاني حرف منه

إن الصورة الذهنية وحدةٌ حيويةٌ ذاتُ مظاهرَ متفاعلةٍ في هذه الوحدة فيبدو هذا التفاعل على شكل الصورة الصوتية التي تعبر عن هذه الصورة الذهنية .

ولما كانت حركة الحرف الاوّل من الفعل الثلاثي تابعة في المضارع للضمير وفقاً للقواعد الصوتية العامة (ونزعة اللسان العربي إلى الاختصار باستخدام الجزم) ، وفي الماضي ذات علاقة بسلسلة الحوادث تحدّدت حركة هذا الحرف (أي الحرف الاوّل) بالماضي على الفتح وبالمضارع على السكون . ولما كان الحرف الاخير أيضاً يخضع للاعراب المعبّر عن وظيفة الكلمة أو عملها في الجملة ، فان حركة الحرف الثاني فقط تعبّر عن علاقة الفعل : إمّا بالفاعل (Suget) أو غرض الفعل (Objet) على درجات متفاوتة ، مّما أدّى إلى تحديد الصيغ في اللسان العربي بست فتح فتح . فتح كسر . فتح ضمّ ، كسر فتح ، كسر كسر ، ضمّ ضمّ .

١ – عندما تتجه الفعالية نحو المكان فالركود ، يتحرّك ثاني حرف من الماضي على الفتح : فاذا بدت علاقة الفعل بالهدف اكتسب هـذا

الفعل ُشكلاً متعدّياً مثل . قتلَ ،ضربَ كتبَ . واذااختفى الغرض صار لازماً مثل ذهبَ رجع .

ولما كان المضارع بفعاليته ُموقظاً الاستعدادات الكامنة في الفعل فقد بدت هذه الاستعدادات اما بتجاوبها مع الغرَض (objet) ، أو كانت أكثر وضوحاً بعلاقتها مع الفاعل أو المسندِ اليه (sujet) . فيعبر عن هذه الفعالية في المضارع بضم ثاني حرفٍ منه : مثل : قتل يَقتل ، طعنَ : يطعنُ . واذا كان اتجاه الفعالية نحو الفاعل كسرَ ثاني حرف من الفعل المضارع مثل : ضربَ يضربُ ، وجلس : يجلس .

واذا لم تبدِ هذه الاستعدادات، الموَقظة بفعالية المضارع ، في الصورة الذهنية ، اتجاهاً . نحو الفاعل ولا نحو المفعول . فتظلُّ حينئذٍ حركة ثاني حرفٍ متحركة على الفتح عبارةً عن اندراجها في المكان . مثل : ذهبَ : يذهب ، فرغ ، يفرغ ، ركن : يركن .

وقد يتضمن الفعل معاني مختلفةً فتبدو حينئذٍ هذه المعاني على حركات ثاني حرف المضارع مختلفةً وملائمة لطبيعة هذه المعاني مثل : صمتَ : يصمتُ أو يصمت . ركزَ : يركزَ : سلخَ : يسلخُ أو يسلخ أو يسلخُ . نجب : ينجُب . أو ينجب رجح : يرجح:أو يرجح . نبعَ . . . الخ .

يشذ عن هذه القاعدة ، الافعال في المثال الواوي والأجوف اليائي والناقص اليائي ، بتأثير القواعد والقوانين الصوتية للسان : وعدَ : يعد خارَ : يخير ونور ... الخ .

لقد ادّعى بعض النحويين تأثير طبيعة الحرف ، وخصوصاً الحروف الحلقية ، على نوع الحركة ، مع ان الأصح هو تطوّر معنى الفعل خلال المراحل التاريخية ، واستقلال شكل الفعل وانتقاله بالتقليد على صورته القديمة الأولى .

٢ ـ يحرّك ثاني حرف في الماضي على الكسر اذا رَجعت الفعّاليةُ الى الفاعل ، أو نسبت حالة الفعل اليه . مثل : فرحَ ، حزنَ ، مرضَ وأما في المضارع فاما أن تبقى هذه الفعالية باتجاه الفاعل فيحرك حينئذ ثاني حرف من الفعل على الكسر : حسبَ يحسبُ ، نعم : ينعم . أو أنه يستقل عن هذا المنحى فيحركّ على الفتح : فرح : يفرَحُ مرضَ يمرض

٣ ـ اذا رسخت الحالة أو استقرّت الفعالية بذات الفاعل يعبّر عنها حينئذ ، بتحريك ثاني حرف من الفعل الماضي والمضارع بالضم : كرُمَ يكرُمُ نجُبَ ينجبُ ،

ملاحظة :

يبدو أن تبويبَ النحو وتسمية هذه الأبواب قد حصلا بتأثير من

الدّخيل (أي غير العربي) وخاصة نتيجة تطبيق قواعده الذهنية على الصرف والنحو العربي . ومن سوء الحظ فقد جرى العرب على هذه القواعد الموضوعة . ومن تلك القواعد تقسيم الأفعال الى متعدٍ ولازم بينما كان ينبغي تعيين اسماء الصيغ الفعلية بالنسبة الى علاقة الفعل والمفعول كما بينا سابقاً .

بعض الامثلة العائدة الى بيان الحركات : خرَقَ : يخرُقَ (ثقب) خرقاً فهو مخروقٌ . وخرِقَ : يخرَقُ خرقاً (دهِش من حيـاءٍ أو خوف) فهو خَرِقٌ ، خِراقةً . خرُقَ : يخرُقُ فهو أخرقٌ (بمعنى أحمق) الخَرْقُ (الثقب) ، والخِرقُ (السخاء) ، والخُرُق (ضعف الرأي) .

علَم : يعلُم علماً (وَسمَ) . العَلْم والعالم : هي الحالات الملقـاة على الكون . وعلِمَ : يعلمُ علماً (شعر به وأدركه) أي أن العلمَ حالةُ ادراكٍ عرضيةٌ وليست ثابتةً مستقرة .

خرَعَ : يخرعُ « شقّ » ، وخرِع : يخرعُ بمعنى « خارَ » وخرُعَ : لانت مفاصله واستدقّ .

خلقَ : يخلقُ « أوجـد » الخَلقُ « الايجاد » . وخلِقَ : ملسَ

ولان . ومنه الخِلقة . وخلُق : يخلق خلقةً وخلقاً (صار ذا بُنيـة Caractére) .

شرّف : يشرف (غلبـه في الشرف) وشرف : (ارتفع) ، وشرُفَ : (صار ذا شرفٍ) .

تشكيل الافعال الرباعية :

لقد بيّنا في الفصل الأول أن كافة الكلمات العربية ترجع إلى أصوات مقتبسة ، أما عن الطبيعة الخارجية كخرّ ، وخربَ ، وخرقَ ، وزمَ وزَمر وزمك .. الخ . وأما عن أصوات بيانية تعبر بها الطبيعة الانسانية عن مشاعرها كوعَ ووعي . وانّ ، وقدّ وأخّ ... الخ .

وسواء أكانت الصور الصوتية ترجع إلى التقليد عن الطبيعة الخارجية أم الى البيان عن مشاعر الطبيعة الانسانية ، فهي تتحـول في اللسان العربي الى الفعالية : إما بتكرار المقطع الأول . أو بتشديد ثاني حرف من المقطع بياناً للاستمرار فيها . وبذلك ترجع كافـة الأفعال العربيـة بالأصل الى أفعال ثنائية البنيان . فالثنائية المتكررة أصلٌ في الأفعـال الرباعية مثل بأبأ ، ترْترَ ، غمغمَ ، وسوسَ ، غرغرَ ... الخ . والثنائية المشددة أصل في الأفعال الثلاثية : خرّ ، زمّ ، قرّ ، قطّ .. الخ .

ولما كان اللسان العربي حيوياً (نسبة الى الحياة) وبيانياً أي أن الصورة الذهنية فيه تُجمِل الفكرة بكافة عناصرها، فالصورة الصوتية المعبرة عن هذه الصورة الذهنية تحتوي على اجزائها متداخلةً، مما أدى الى تداخل الأفعال المتقاربة في المعنى وفي الصوت فتتشكل عن هذا التداخل أفعال رباعية. مثل: دَحرَجَ، من دَحرَ، ودرجَ، وزحلفَ من زحل وزحفَ.

كذلك يستقطب الذهن العربي بعض الحروف الدالة على أسس تركيب الجملة فيُدخل اليها الفعالية ويكوّن منها أيضا أفعالاً رباعية مثل: بسملَ: من بسم الله. وحمدلَ: من الحمد لله، وحوقلَ: من لاحول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان المداد قوام الفعالية فان ادخاله على الاسم يحوله الى فعل فيتشكل من ذلك بعض الأفعال الرباعية مثل: قَطرنَ: من قِطران.

وقد يشكل الذهن العربي أيضاً أفعالاً رباعية بابدال أحد الحروف الاضافية الى الافعال المشتقة، فيحولها الى رباعية. فمن أراقَ: هراق. ومن أثارَ هنارَ، ومن آت. هات... الخ.

وأما المشتقات الرباعية فهي. تفعللَ، وإفعنلل، وافعللّ.

فالصيغة الاولى حصلت باضافة حرف (تاء) وهنا تفيد التاء معنى

لذاته أو بذاته (de soi) . فمن دحرجَ . تدحرج . ومن سلطن . تسلطن ومن جلبب . تجلبب . ومن عفرت . تعفرت .

وأما الصيغة الثانية فقد حصلت من ادماج حرف (نون) بين ثاني وثالث حرف من الفعل (وهنا أيضاً تدل على العفوية) مثال . ابرنشقَ ، احرنجم ، اصلنطح ، اثعنجر .

والصيغة الثالثة تحصل بتشديد الحرف الأخير وهنا تفيد (الشدة) أيضاً الدخول في الحالة والتثبت عليها مثل . إدْلهمَ ، اشمخرّ ، اضمحلّ ويبدو في الامثلة المتقدمة ، البيان المشترك للحروف المضافة (التاء) و (النون) و (الشدة) مع المشتقات الثلاثية (أو تبدو وحدة البيان في هذه الحروف بين المشتقات الثلاثية والرباعية) .

لقد اوضحنا في الفصل الاول نشأة الافعال الثلاثية من صور صوتية ثنائية وذلك من نزعة المعنى الى التوضح والتحقق باختيار الحرف الابلغ بياناً في التعبير عن المعنى المتفرع وها أننا نبسط الآن المشتقات الحاصلة عن الفعل الثلاثي وهي :

١) فعّلَ ٢) فعلّ ٣) فاعلَ . ٤) أفعلَ . ٥) تفعّلَ . ٦) تفاعلَ ٧) انفعلَ . ٨) افتعلَ . ٩) افعلّ . ١٠) استفعل . ١١) افعالّ ١٢) إفعوعل ١٣) إفعوّلَ ١٤) إفعنلل ١٥) افعنلى .

لقد بينا أن الماضي مبني مبدئياً ، على الفتح (عبارة الركون اوفقدان الفعالية ، والمضارع يعرب بضم آخره (عبارة الفعالية المتواصلة) ، وأما الأمر ، وهو من المضارع ، فانه يبني على الجزم تحديداً لهذه الفعالية .

على ان المنهاج الذي يسير عليه اللسان العربي في نموه بالحاق الحروف أو دمجها في صلب الكلمة ، معبراً بذلك عن المعنى المتفرع في الصورة الذهنية ، يبدو، في الاشتقاقات الفعلية ، واكثر وضوحا واضطرادا ، بحيث ان التحول في الخيال الذهني يظهر ، ما يقابله وفقاً للذوق العربى في اختياره الحروف الاقرب بياناً عن هذا الخيال .

ولما كانت طبيعة كل فعل ، بالنظر للمعنى الذي تنطوي عليه الكلمة تحتمل النمو في اتجاهات مختلفة،فانه يبدو تفرع معناها متجليا بصورة متممة للمعني الاساسي المتعلق بالقاعـــدة العامة . وهنا تتجلى ، في مدى قابلية الافعال الاشتقاقية المختلفة ، اتجاهات ثقافة الامة بالنظر الى وجهة نظرها وضمن المرحلة التي تجتاز حضارتها . ١) فعّل . بتضعيف ثاني حرف (الشدة تعبيراً عن الكثرة وما يقابلها من تحول في طبيعة معنى الفعل ، وحسب اتجاهات نموه الخاص .

ا ـ عن تعدد المفعول ، كسّر ، فرّق ، قطّع ،

ب ـ عن مضاعفة فاعلية الفعل : طوّف ، حوّل ، بكى ، فرح حمل (تبدو الحالة في هذه الامثلة بتجاوب مع الكم)

ج ـ وأما اذا كانت الحالة ملازمة للفاعل فانّ (الشدّة) تعبر حينئذ عن اتجاه اسنادي : كذّب صدّق .

د ـ واذا كانت فعالية الفعل ضئيلة في المعنى الذى ينطوي عليه ، فان (الشدة) تعبر حينئذ عن فعالية اضافية مثل : خيّم ، قدس ، دخم جلد .

هـ ـ الفعالية المضافة تتحول الى حركة (شرق ،غرب ، وجه) الخ.

ملاحظة :

ان الفرق بين (فعّل) و (أفعل) هو أن (أفعل) يفيد ، حسب بيان الصورة الصوتية ، الدخول في حالة الفعل ، مع أن صيغة (فعّل) تفيد الرسوخ او النمو الحاصل على التفاعل في بنيان الصورة .

٢ ـ فاعل : تحصل هذه الصيغة من تحويل حركة ثاني حرف (الفتحة) الى (مدة) متجانسة « أي ألف » . ونظراً لاشتراك هذا الحرف في صيغة الفاعل الثلاثي وفي التثنية أيضا فهي تعبر عن الجهد وما ينطوي عليه هذا الجهد من مقابلة وتعد على المقابل ، أي التغلب

على المقاومة . كذلك تبدو في هذه الصيغة بعضُ الاتجاهات الكامنة في طبيعة معنى الفعل الثلاثي .

أ ـ معنى المقابلة والمقاومة : قاتلَ ، صارع ، شاعرَ ، شارف ..الخ

ب ـ قد يكون الجهد ، المعبر عنه ، بنقل الفعل اللازم الى متعد : قاولَ راسل ، جالس ،واقع .. الخ.

ج ـ وقد تعبر هذه (المدّة) عن نقل حالة الفعل الى المفعول : لاَين خاشنَ ، ناعم .. الخ .

د ـ وتعبّر أيضاً عن المسافة أو الجهد المطلوب للتغلب على هـذه المسافة : سافرَ .

٣ ـ أفعل : ـ وهذه الصيغة تحصل باضافة (همزة) معبرة عن الدخول في الفعالية أو ادخالها على طبيعة الفعل :

أ ـ تعني الانتقال من حالة (نزيئة) عفوية ، الى فعالية بارزة أكثر ظهوراً مثل : أزْهرَ ، أورق ،أثمر ، أسرع ، أفصح أبطأ ، (في الشؤون الانسانية تفيد اذن دخول الارادة في الفعل) .

ب ـ تفيد نقل الفعالية الى فاعل الفعل الاصلي : أعلم ،أخبر ، آكل

ج ـ تفيد معنى اسنادياً فيما اذا كانت الحالة ملازمة للفاعل : أبخل أحمد ، أجبن .

د ـ تفيد أن الفعالية المضافة الى الحركة في اتجاه معنى الفعل : أقبل أدبر ،أشتى،أصبح . كأني بهذه الفعالية تستهدف غاية الفعل ، و(الهمزة) تعبر عن الجهد اللازم للوصول الى هذا الهدف : أَسبع ، أَفقر ،أجدب

٤ ـ تفعّل : وذلك بالحاق حرف (التاء) الى (فعّل) ولما كان هذا الحرف بمثابة «تاء» الضمير المعبرة عن معنى ذاتي تقوم في هذه الصيغة بمقام الغرض (obget) وهي تقابل تقريباً الأفعال المنعكسة (Reflexes) في بعض اللغات الأوروبية . ولما كانت الكلمة العربية بطبيعتها «حيانية» فإنه يحدث بين أجزائها تجاوب يفضي الى معنى خاص وإضافيّ على القاعدة الأساسية ، والتحوّل الحاصل من هذا التجاوب في الحدْس ملازم للصورة الصوتّية المعبّرة عنه .

كذلك تفيد هذه العلاوات في بعض الأفعال :

أ ـ الجهد الذاتي في طبيعة الفعل : تتّبعَ ، تطلّبَ .

ب ـ الرسوخ في الحالة : تحققَ ،تبيّنَ ، تيقّنَ ، تبصّرَ (كأن «الشدّة» تعبّر عن جهد متراكم) ،

ج ـ تفيد في الافعال اللازمة ، التصنع والتكلف : تصبّرَ ،تشجّع تكلّف . الخ

د ـ الجهد اللازم للانتقال إلى حالة الفعل تأسّدَ ، تسبّعَ :

تفاعل بإضافة حرف (التاء) إلى «فاعل» وهنا كذلك يحصل تفاعل بين اجزاء الصورة الذهنية وتبدو من هذا التفاعل معان إضافية على المعنى الاصلي

أ - تفيد معنى التعادل والقابلة الذاتية مثل تنازعَ ، تجاذب ، تقابل

ب - وتفيد أيضاً المسافة التي تفصل الفاعل عن الغاية ، ونزعته من ذاته ، الى هذه الغاية ترامى ، وتلاشى

ج - وتفيد أيضاً التكلفَ والجهد المنطوي عليه هذا التكلف مثل تمارضَ تماوتَ ، تغافل تجاهل

ء - وتفيد أيضاً الجهد المطلوب للوصول الى الغاية :تعالى، تسامى

ه - وتفيد فاعلاً مشتركاً (anonyme) تداعى « تسامع به الناس » .

إنفعل باضافة «نون» إلى «أفعل» وهي « أي هذه الصيغة » تفيد أيضاً التعبير عن معنى ذاتي والفرق بينهما وبين « التاء في « تفعل »مثلاً هو أن «النون »تعبر عن المسند إليه (Suget) بينما « التاء» تكون اقبل إلى المسند (obget) ولذلك فإن الأولى تتضمن معنىً « نزيئاً » أي عفوياً والثانيه معنى «المطاوعة » إنكسرَ وتكسّرَ ، إنشقّ وتشقق انقطع وتقطع ، الخ وفي الاصل فإن حرف « النون حرف بياني ، اشتقت منه الضمائر أنا ، نحن ومنه أيضاً ضمير المخاطب . أنت ،

ولما كان الطابع الاساسي في اللسان العربي حيوياً كثرت فيه الصيغ

والاشتقاقات المعبرة عن النزوة ،وهي في الثلاثي المضموم الحرف الثاني، وفي بعض معاني « افعلَ » كأورقَ وكذلك في « انفعل »

وجهل هذه الميزة الأصيلة في اللغة العربية حملَ البعض على استخراج صيغة (إنفعل) من الافعال التي تتضمن معنى (النزوة) مثل حمقَ انحمق هوى وانهوى .

كذلك ، جهلاً بالفرق بين معنى « التاء » والنون » الملحقتين بالافعال ، وقع بعضهم في الالتباس بين اصطلح ، وانصلح ، ومن نفس الخطيئة أيضاً صار استعمال هذه الصيغة « صيغة انفعل » بدلاً من المجهول مثل «إنامس » بدلاً من «مُاسِ» و «إنغلق» بدلاً من «غُلقَ » .

إفتعل : باضافة «همزة» و «تاء» مندمجة في «الفعل» «وهي أي هذه الصيغة » تفيد الدخول في فعالية مستهدفة الغاية .مثلاً :التمسَ ،وافترى واحتطب ، الخ أو ذات الفاعل : افترق وإعترض واضطرب .

وهي تفيد ايضاً التبادل في الهدف أحياناً : «اقتتل » الناس واختصم الخ أو تفيد النزعة إلى الغاية : مثل «اقتضى» . وإذا كان الفعل «نزيناً» فإنها تفيد حينئذ عودة الغاية إلى ذات الفاعل كـ «امتلأ » و «ارتدع» .

إفعل ـ بتشديد الحرف الأخير ، وهي تفيد الاستمرار على الحالة :

احمرّ ، ابيضّ ، اسودّ الخ .. «كما تدل هذه الشدة في الفعل الثنائي المشدد حرفه الاخير ، الاستمرار على الحالة «ثرْ» تصبح «ثرّ» .

افعالّ – بتحويل (الفتحة الى « الالف » دلالة على الجهد المطلوب للوصول الى الغايه :

اصفرّ واصفارّ ، ابيضّ وابياضّ ، اعوجّ واعوّاج ، ازورّ وازوارّ ... الخ .

استفعل باضافة « السين » « والتاء » . فالحرف الأول يفيد الحركة او الطلب . وهنا أيضاً يتفرع المعنى بحسب طبيعة الفعل وحرف «التاء» يفيد ما قد ذكرنا في المشتقات السابقة .

أ – استغفرَ ، استأذنَ « طلب الغفران والاذن » . استسقى واستغاث .. الخ

ب – يفيد مدى النزعة الى الحالة والدّخول فيها .مثل استوحش واستسلم ، واستتاق ، واستحجر ، واستغرب .

ج – تفيد الميل الى حالة الفعل . استحسن ، واستحل ، واستخف.

د – تفيد الانتقال الى حالة الفعل : استنسر ، استنمر واستأسد

هـ – تفيد تثبيت الغاية بذات الفاعل : استوزرَ :

يتبين مما تقدم أن الصورة الذهنية «أو الحدس » تتضمن الفعل

والمفعول ويبدو هذا التضامن والتفاعل في الصورة الصوتية التي تجمل هذه الحالة

افعوعَل : بتكرار ثاني حرف من الفعل الثلاثي منفصلاً بحرف «الواو» المجزومة

وهي « أي هذه الصيغة » تفيد النموّ متموجاً في طبيعة الفعل مثال ذلك احدودب ، اخضوضر ، اخشوشنَ ، اهلولكَ احلولى الخ

افعوّلَ بدمج «واو» مشددة في صلب الكلمة وهي تفيد الدخول في حالة الفعل ، والتثبت فيها بصورة متواصله : إخروّط ، إجلوّذَ ، اعلوّط

إفعنلل : بدمج «نون» في صلب الكلمة وهي بمعنى ، كما تقدم ، من ذاته | de soi meme |) ، وبتكرار الحرف الأخير من الفعل أي اللام وذلك يعني أيضاً التدرج في الدخول بالحالة : اجحنْشَشَ ، إصلنككَ إقعنْسَسَ .

إفعنلى : بدمج « نون» وإلحاق « ياء » وهذا الحرف الأخير يعني « النسبةَ » أي الانتساب « من ذاته » إلى الحالة والدخول فيها :

مثال : إعلندى ، وإحبنطى

الفَصلُ الثّالِثُ

الكلمة العربية في أسرتها

لئن كانت الصورة الحسية : « صوتية ـ مرئية ، صوتية ـ مدادية » مبدأ اشتقاق الكلمات في اللسان العربي ، فهي مصدر انبعاث المعنى أيضاً .

فالكلمة من المعنى الذي أنشأها ، كالبدن ، من النفس ، أو كالخيال من صورته ، تحمل طابعه وتكشفُ عنه وإذا كانت النفسُ تتضحُ بتجاوبِ تجلّياتها مع نموِّ بدنها ، فالمعنى أيضاً ، يتضح باشتقاق الصورة الحسية الى كلمات بليغة ومتلازمة :

فتلازمُها يكشف عن حدس الامة : فيحوّل ، في نفس الفرد الى بصيرة في بنيان الوجود ؛ وبلاغتها : تعين قابليتها الفنية فالكلمة العربية هي اذن ، في أسرتها ، كاللحنِ في الأنشودة

واذا كانت الميولُ تبدرُ ، عن الغاية التي انعقدتْ عليها الحياةُ في

الفرد ، ملازمةً لنمو البدن فتعين بها الحاجاتُ المجيبة عليها ، فالمعنى أيضاً : يعين للنفس الصورَ المحققةَ له ، يحددُ بذلك اتجاه اشتقاقاتها ، ولكنّ الصور لاتستنفدُ المعني ، والنفس مرتبطةٌ ، بتلك الميول ، ببدنها في عدة عملها في الوجود .

لذلك ، فإن هذه الحاجات تضيفُ وحـدات ادراكية مصطلحةً أي اشياء « من شاء » الى الوحدات الفنية « حيانية ، « الكلمات الحية » انسانية ، « الحدْس » وهذه الأشياء المضافةُ تعرقل ، على النفس التجاوب بين تجلياتهـا الزاهية ومصدر اشعاعها لان تداخل امدة (جمع مداد) هـــذه الأشياء المصطلحة مع أمدة تجليات الوجود الأصيلة ، يسبب التدّاعي بالإتصال : [association per contiguite] فيلتبسُ المصطلحُ بالبدي ، ، وتتحكمُ العادَة في النفس ، ويتيه الخيالُ عن الحقيقة ،

الا أنّ الأمة العربية ، التي اختارتْ بنيتها وفقاً لغايتها من الوجود قد اصطفت هذه الصور الصوتية ـ المرئية ـ ، مستندةً على تعادل مدادها ، لتحقق بها هذه البنية (وبذلك تتضح حكمة أنّ الأسماء تنزل من السماء) فحددّت بذلك من شطط الخيال الشخصي كما جهزت بدنَ الفرد بالغرائز فعينت له تعادل حاجاته ، وانشأتْ كذلك كافّة مؤسساتها

(الأخلاق ، اللغة . الفن) على ضوء هذه البنية ، تحقيقاً لها ، وبالانسجام مع تلك الغرائز

واذا كان عالم المستحاثات [Palèantologistè] يبعث ، بخياله الفني ، في أجزاء الهيكل العظمي ، المبعثرة في جوف الأرض ، بالوحدة الحياتية التي أنشأتها ، فالعربي ، أيضاً ، بدراسة لسانه ، الذي تتلخص فيه كافة تجليات أمته ، دراسة توليدية (gènetique) وباتمام ذلك ، ببعثه الموجات التاريخية التي تحققت فيها هذه التجليات بسيطرة الأمة على القدر ، تنكشف له ماهية أمته ، فيرتقي بهذا الكشف ، من الناسوت الى اللاهوت .

ذكاء

Jntelligence

إن كلمة « ذكاء » مشتقة من « ذكا » وهي صورة صوتية ـ مدادية تنطوي مع أخواتها : « صكّ » ، «ضكّ » ، « دكّ » .. على اتجاه يتضمن معنى الاحتكاك « الدلك » بحسب بيان الحرف (ك) والكلمات المعبرة عن بعض تجليات الحدس الحسية هي : « ذكت » النارُ : اشتدّ لهيبها « ذكّى » النارَ : أوقدها ، « الذُكوة » : مايُلقى على النار فتذكى به ، « الذّكاء » : الجمرة المشتعلة ، « ذكاء » إسم علم للشمس ،

(وتفيد هذه الصور الشدَّة والإشتعال) : المُذكي » من السحاب : غزير المطر ، « ذكى » الرجل : تقدَّم في العمر وبدن ، « المُذكى » من الخيل : ماتمّ سنّه وكملت قوّته . (وهذه الصور تفيد الشخوخة باستكمال شروط النموّ) ، « الذكاء » : سرعة الفهم وحدّته .

يُستخلص من هذه الصور الحسية والمفهومات الذهنيـة ، المعبرة عن اتجاهات هذا المصدر ، انّ الحدس العربي هو أن الحقيقـة تسطع ، بتباين الأفكار ، كما يحصل النور باحتكاك الأجسام . فكأن الذهن العربي قد أدرك حدساً ، الشبه بين تحولات الوجدان من الإبهام قُبيلَ اليقظة الى الوضوح فالتأجج ، عند استكمال شروط هذه اليقظه ، وبين الشمس الساطع نورُها والحاصلة من تكاثف السدّيم وتبلرِه : فعبر عن « الذكاء » (النورِ المنبثقِ عن استجمام النفس) بكلمةِ « ذُكاء » صورته المحسوسة ، فلخّص بذلك عقيدة الأقدمـين المشيرة إلى أن الشمس رمزٌ للاله ، كما لخص أيضاً الفاسفة اليونانية الحديثة التي تعتبر الذكاء معنى الوجود .

وإذا كانت الموجودات تصبو إلى الشمس ، مصدر انبثاقها فالحالات النفسانية ، أيضاً ، تصبو الى الذكاء ، النور المنبثقِ عنهـا ، وعلى شفق هذا النور ، تصطفي النفس الحالات المختارة وتحققها ، فيتضحُ ، حينئذ ، لغز الوجود : كن فيكون .

وليس عبثاً اذا اتجهت أنظار الانسان الى السماء ، حيث تفيض الشمس بنورها فتغمر به الكونَ ، إذ أنه أدرك ، بهذه الصورة ،قرارةَ نفسه ملقاةً (projétée) على الكون ، هذه القرارة التي ترتقي اليها النفس باستجمام تجلياتها ، فينكشف لها بنيانها ، حينئذ متجلياً بهذا النور المتكيف بالتسامى : وكل درجة ارتقاء تمنحُ صاحبها أفقاً متناسب المدى بالنفوذ .

ولئن كانت المعرفة الرحمانية ، مطلقا تأثيرها في سلوكنا ، فالمعرفه الكونية تتحقق أيضا بواسطة بنيان بدننا المجهز بمنظومات مدادية (Systémes de Rythmes) متفاوتة التفرع ، ذات بنيان رحماني (Sympathique) أصيل .

فبذلك يكملُ الشبه بين « ذكاء » وبين صورته الحسية « ذُكاء » التي تزيد من امكانيتنا العملية .

« الابهام » « والغموض »

إن كلمتى «إبهام» و «غموض» بالتباين مع الذكاء ، تزيدان حدسه إيضاحاً ، وتتممان فهمه :

فكلمة « إبهام » مشتقة من (بَهمَ) وهذه حاصلة من (بَها) ، بابدال

الحرف (ألف) بالحرف (ميم) وهذا الحرف المستبدل : بحسب مخرجه ، يفيدُ المحدوديَةَ والإغلاق ، فيـُحوّل هذه الكلمة :

من (بهيّ)الايجابية : «بها» ، «بهى» البيتَ : وسعه ؛ «أبهى»الاناء فرّغه ؛ «البهو» ، «والبهاء» : الحسن ، باتجاه التفتح والازدهار) إلى «بَهمَ» السلبية : « أبهمَ » الباب : أغلقه ، «المبهم» : الحائطليس فيهباب «البهيم» الأسود ، أو ما هو َعلى لون واحد ؛ وليل «بهيم» : لانور فيه، و«البهمَ» : صغار الحيوانات ، «والبهمة» . الدابة ، .. و«الأبهم الأصمت والاعجم «َبهمَ» . اشتبه واستغلق) .

وكذلك كلمةُ «غموض» فانها مشتقة من «غمض» وهذه حاصلة من «غمّ» باضافة(ض) إليها و «غمّ» صورة بيانية تعّبرعن المعنى الذي تنطوي عليه أكمل َتعبير : «غمّه» غطاه ، أحزنه ، « غمي» عليه الأمر : خفي واستعجم ، و «الغـُمة» : الظلمة ، و«الغمّ» : الحزن .

ومن مشتقات «غمض» : «الغامض » المبهم والمغلق ، أو الخـــامل والذليل ، و«الغموض» : العيب ، و «غوامض» الإبل : صغا. ١ .

يؤخذ من هذه الصورّ الحسيّة والمفاهيم العقليّ ...مة ، أن الحالة النفسانية التي تعرض عن المعنى ، تلتم على نفسها (أو تغمض) وتفقد نورها وتلونها (بهاءها) ، فتمسي في ظلمة وحزن .

لقد رمزت الحياة إلى هذه الحقيقة ببنيان مدادها، إذ حددت به عدانها النوعي (أي الوحدة الحياتية المتحققة، بين الولادة والتوليد) باندراج بوادرها في الامتداد، وبتجاوب واستجام هذه البوادر بالمدة فالمداد ينطوي عليها، وماالبدنُ (من بدا) الاّ صورةُ (من صار) هذه الوحدة المتجلية في عالم الشهود.

فبالمداد تتفاوت الأنواع الحيوانية، وبالنسبة إلى مداه تتعيّن مراتب تطوّرها، وهو (أي هذا المداد) يكاد يكون مغلقاً في الأنواع الابتدائية اذ أنّ عدانها آني (intsantanè) فتلتبسُ فيه (المدّة) بالامتـداد أو الزمان بالمكان، ولا تكادالحياة تتميز فيها عن المادّة. بينمامدادا لحيوانات الراقية فسيحُ المدى، تتجلّى فيه مظاهر الحياة المتنوّعة وبه تنسجم: فقد آثرت الحياة، في هذه الأنواع طريق النموّ فالتركيب، حيث تشق سبيل السلامة، عبر الزمان والمكان، لتشفّ عن بهائها، رغم كل ما يعترضها من أخطار، على أنْ تظلّ بسيطة متناثرة، معدومة في الانواع الابتدائية:

ففي الانسان، يتعدي هـذا العدان (٤٥) سنة مع أن شروط الانتاج الجنسي تكتمل بين [١٣ – ١٨] سنة من العمر. ذلك لان

قاعدة الحياة الانسانية ، في نفس الوقت تواصل نموها إلى مابعد حياته الفردية ـ النوعية .

أفلا تكشف لنا الحياة الوجدانية أيضاً عن بنيان مماثل ؟ أليست العبقرية فكرةً تفتحها متواصل مطلقاً منذ ما تستيقظ على الوجود تحقيقاً لما قد انعقدت عليه الحيــاة في صاحبها : فاللمحات ، المنبعثة عن تجلياتها المتفتحة وفق طبيعتها ، تتحول بتساميها ، الى قبس تزول بنوره الفوارق ، كما لو اشتد نور الأشعة المطلة من النجوم وشقت به المسافات الفاصلة بينها فبدت السماء ، حينئذ ، وحدةً نورانية .

فبهذا النور تنكشف للنفس بنيانها فيبدو هذا البنيان مثلما تبدو الاشياء في القطب تحت شمس دائم ضياؤها .

وبهذا النور أيضاً تستيقظ الذكريات الضامرة ، فتتجاذب ، وتنشيء النفس منها عالما (عالَم : من عَلم ؛ وهذه من علا) وتلقيه على الكون

فالعلمُ ينشيء هيكله من تلازم الموجودات الأصيل ، (المناسبات الثابتة بين الحوادث أي القوانين) والفن يحقق مراتبه المتسامية بخيال يصنعه من الصور الحسية .

وهذه المناسبات الثابتة ، تتحول بالصناعة ، إلى قواعد عملية ،

فيسيطر الانسان على القدر بالآلة التي يبنيها عليها، أما في الفلسفة فانه يرشف يرتشف من ينبوع هذا التجلي .

واذا كانت العبقرية غايةً تصبو اليها الحياة ، فالافرادُ ، بالرقي إليها مختلفون لما يتطلب هذا الرقي من همة وجهد : همةٍ تحدّدها فسحة قطبي الوجود : الطبيعة وقرارة النفس وجهدٍ يستدعيه اختيار السبل التي ينشيء بها صورته ، في وجود تنزع كافة مظاهره الى تحقق مطلق ، ليستقطب بها (أي بهذه الصورة) المعنى فيرتقي ' بهذا الاستقطاب ' من "شخص" (قناع) الى "ذات" .

ففي العامي (مَن عميَ عن تجليات الوجود أوطمست عليه الخوارق تتقلص هذه الفسحة حتى ليستغرق المعنى في الصورة استغراقاً تاماً ، فتتحكم الغرائز والعادات ، وتتناثر ، عندئذ ، الحياةُ الذهنية ويضمر الوجدان . واذا تخلل هذه الحياة الساجية (Monotone) بعضُ الاحلام المتقطعة ، فسرعان ما تسطو عليها العادة ، فيضيق عليها افق العلم والعمل ولهبط العوامّ عن مستوى الحيوان لو لم ترفق العناية بهم فتنبغ العبقرية فيهم لتنسج لهم قواعد تفكيرهم وعملهم فيعوضون بهذه (القوقعة عن هيكلهم (الصميم) .

فليس من العبث إذا أدرك العربيُّ في الحيوان (البهم - الغوامض)

رمز الابهام والغموض ، مادام ، هذا لاتسمح له حياته المغلقة الغامضة ان يدرك تجليات الوجود لذاتها ، فيتمتع بجمالها وبالخلود .

« اللذة » و « الألم »

Le plaisir et la souieur

إن كلمة « لذة » مشتقة من « لذّ » لذ الشيء : صار شهياً فهو « لذيذ » و « لذّ » الشيء : وجده لذيذاً .

فهذه الكلمة ، كما يبدو ، تفيد الحالة الحاصلة من الملائمة بين النزعة وغايتها ، وهي ذات اتجاهين :

اتجاه النزعة ، ويبدو خاصةً في معاني شقيقاتها : « لذَب » بالمكان : أقام « الملاذم » ، « لذَع » ، و « اللذاع » ، وهذه النزعة تشتد ، في الشكل الرباعي ، فتتحوّل الى حركة : « الازلاذ » السريع الخفيف في عمله .

واتجاه الغاية ، ويقتصر على : « الألذّ » : الأكثر لذة ، « الملذّ » موضع اللذة .. وذلك بالنسبة الى النزعة ايضاً .

« فاللذة » ، في الحدس العربي ، اذن ، هي النزعة في الوجدان باتجاه غايتها : فاذا تقدمت النزعة على غايتها فانها تبدو ، في الوجدان ، محددة

بصورة غايتها ، حاملة هالتها (الشهية) ، واذا ماتحققت هذه الصورة بالشيء ، تحولت الشهية حينئذ الى اللذة .

يكشف لنا ذاك ، عن الاتصال بين الملأ الأعلى وعالم الشهود ، من جهة ، وعن تأثير البدن كمعيار لتحقيق نزعاتنا ، من جهة اخرى . وسواء أكانت الاشياء أو صداها في البدن ، فكلاهما يحدد محل اللذة ، ويميزها ، بذلك عن المشاعر الايجابية الأخرى (ايجابية بمعني منبعثة عن الحياة وموجبة للعمل) .

وكلمة « الألم » المقابلة للذة تزيدها ايضاحاً ، كما انها تتضح بها . وهي حاصلة من « لمّ » بادخال (همزة اليها . تبيانا للفعالية المضافة .

وكلمة « لمّ » تعبر عن اتجاهات فريدة المعنى بحيث أنها تفيدُ الإصلاح ، اذا كانت باتجاه الخارج : « لمّ » : أصلح ، « لمّه » : جمعه وشده ، بينما هي تفيدُ الوجعَ اذا كانت من الخارج نحو الداخل : « ألم » به : أوجعه ، فاذا ماحصل اللم من الصميم ، « لؤم » فانها تعني ، حينئذ ، تقلص النفس عن قطبي الوجود . و « اللئيم » : من هو دنيء : (تقلصت دنياه) وشحيح النفس .

فاذا كانت « اللذة » تحصل عن تفتح الفعالية نحـو الاشياء ، فان

« الألم » يحصل عن تقلص هذه الفعالية ، بتأثير خارجي . سواء عن بنيان البدن أو البيئة .

ومع ذلك فان موقع الشعور باللذة والألم يحدُد في كلتا الحالتين بالنظر إلى علاقة هذه الفعالية بمحيطها وخاصة بالبدن .

فعندما يشتدُ التقلص يتحول « الألمُ » ، حينئذ ، الى « وجع » (Souffrance) إلا اذا تناول التقلص الخيالَ فقط فانه يصبح ، عندئذ « حصراً » أو « ضيقاً » .

السعادة والتعس (التعاسة)

اذا كانت « اللذّة » محددة بعلاقة النزعة بالشيء « فالسعادة » تشمل الحياة بجملتها ويقابلها كلمة « التعس » (التعاسة) المشتقـة من « تعّ » و « تعتع » (الصورة الصوتية البدائية) التي تفيد العجزَ عن الافصاح ومن شقيقاتها : تعّ استرخى « تعبَ » أعيا وكلّ : « تعتع » في الكلام تردّد فيه (من عيّ) « تعسَ » : عثرَ وأكبّ على وجهـه (التعس) : الهلاك ، الشر ، الانحطاط . « فالتعاسة » ، إذن ، انما هي في انهيـار الشخصية الحاصل عن عجزها عن استجمام ذاتها فتحققها .

بيننا كلمة « السعادة » (سَعى ، ساعَدَ ، ساعي) تعني على العكس ، تفتح الشخصية بكاملها (الميول التي يطوي عليها البدن ، والارتقاء نحو قرارتها باستجمام تجلياتها : الأعمق فالأعمق) .

لذلك تبدو الحياة ، بنمو بدءها (في الصبا ، الصبْوة والشباب) نشيطةً (نشأ ، نشوة) ، وبتحرُّرِ معناها وتفتحه، حتى مابعد الشيخوخة سعيدةً لما تتضمن هذه الكلمة من سعيٍ وجهدٍ .

وليس من العبث أن ادرك الذهن العربي علاقة السعادة بالشقاوة (شقٌ ، شقشق) Peine لما المقاومة التي قد تلقاها فعاليتنا ، عند تحققها من تأثير على حياتنا ، فأردف كلمة « سعادة » با «لمساعدة» و «الساعد» وضمنها بذلك ضرورة التعاون الاجتماعي على تذليل الصعوبات والسيطرة على القدر تحقيقاً لما تنطوي عليه نفوسنا فتسعدَ .

الفرح والحزن

La joie et La tristesse

عندما تتفتح الحياةُ ، بنموها في الفرد ، يبدو منها الفرحُ مشيراً بتكيفه الى اتجاه تعاليها . فتتهافت الحالاتُ النفسانية حينئذ ، بهذا الاتجاه ، نحو غايتها ، وبهذا التهافت يكتسب الفردُ قوةً وبهاءً .

لذلك فقد اختار الذهنُ العربي كلمة « فرّ » ، « فرفر » (الصورة الصوتية الحاصلة عن طيران العصفور) مصدراً لاشتقاق كلمة « فرح » لما للحالة التي تعبر عنها من شبه مع ارتقاء العصفور في الآفاق العالية (العبارة العامية : « طار من فرحه ») :

كما أن هذا الذهن قد عبر عن الحالة المقابلة للفرح بكلمة « حزن » من « حزّ » قطع ، بحيث أن النفس تضمر فحصل فيها ماتعبر عنه بالعامية ، (قطع قلبي من الحزن) .

يؤخذ ، من جملة الكلمات المعبرة عن بعض الحالات المتعلقة بالشعور ، أن الحياة تنطوي على « المسرة » وانها ، في الاصل ، متفائلة إنما قد يعتريها ، في تحققها ، بعض المشاكل ، فتسبب لها الحالات المعاكسة على درجات متفاوتة .

فإذا مست هذه المشاكل صميم الحياة ، تعسَ صاحبها (الفرد) ، واذا تناولت البدنَ حصل له وجع وألم ، واذا حددت افق خياله صار ضيقاً وحصراً ، واذا تعلقت بالظروف المحققة لبنيته صار شقياً ..

ولكن اذا استكملت الحياة شروط تحققها في الفرد ، باخضاع القدر لمشيئته ، تحولت « المسرة » الى سعادة و « فرح » .

يبدو من الامثلة المتقدمة أن الكلمة العربية تعبر عن العربي صانعها

اذا هو يتمتع بقيمة انسانية مطلقة تنكشف بها ، في نفسه غاية أمته من الوجود ، ويملك بالاضافة اليها قيمة نسبية تشترك في تعيينها أصالته التي تنطوي عليها بنيته (الاصالة التي تجلت بها هذه الغاية بالصفات الاصلية في أسرته . فهي تبين اذن قابليته لهذا التجلي) ووظيفة الاجتماعية التي حددت أيضاً مدى تحقق هذه الغاية لخدمة المجتمع .

كذلك الكلمة العربية فانها تنطوي على نظرة الامة العربية في الوجود (هذه النظرة التي يكشف عنها عندما تنسجم هذه الكلمة مع منظومة معاني شقيقاتها) وعلى قابلية خاصة للتعبير عن هـذا المعنى ، يحددها في الجملة وظيفتها المعبر عنها باعرابها .

على ان العادة قد تستأثر بالكلمة أحياناً وتجمد لغتها الشعرية (والشعر بيان الشعور) فتلجأ النفس ، عندئذ ، تطميناً لنزعتها الذهنية الى زاوية جديدة بحيث تدرك المسمى من وجهة بديئة فتبدع كلمة تعبر بها عن احدى صفاته الخصوصية (راجع البيان المرئي).

ولما كانت الكلمة تضيق عن المعنى وهي تشير الى بعض اتجاهاته فقط فان الموجة التاريخية تحرف بعض هذه الاتجاهات التى تنطوي عليها الكلمة وتخرجها عن منظومة معاني اسرتها اذا ما عجز ممثلو هذه الموجة

عن ابداع الكلمات المعبرة عن المفهومات المستحدثة فيها وهذا الانحراف فيها يكشف عن التحولات التاريخية المنعكسة عليها .

الفضيلة

La Vertu

فكلمة « فضيلة » مثلاً لا تكشف عن تطور المجتمع العربي بانتقاله من مرحلة انبثاقيه (حيث تتجاوب النزعات التي تنطوي عليها النفوس مع المؤسسات المعبرة عنها فتفيض هذه النفوس بهذا التجاوب ، خيراً وجمالاً مثلما تتحقق البنية وتزدهر بتجاوبها مع البوادر (esipressins des èmotions) التي ارتسم بها شكل تموجاتها) ـ الى مرحلة تقليدية حيث زاح المجتمع عن حقيقته فحجبت عنها نفوس أبنائه وضمرت باختلاف هذه المؤسسات عن نزعاتها ـ فحسب ، بل انها تكشف أيضاً عن تباين الآريين والساميين فرعي العرق الابيض (ذي التاريخ) : الفرعين اللذين يمثلان قطبي الثقافة الانسانية : الطبيعة والملأ الاعلى :

فالساميون ، كما تشير اليه كنيتهم (سما ، يسمو ، سماء ، اسم . .) وكما تنطوي عليه عقيدتهم ، هم بحق ، اولاد السماء ، اذ أن نفوسهم تصبو اليها كمصدر انبثقوا عنه ، وكغاية ينتهون اليها وماهي (أي السماء) الا

الصورة التي انطوت عليها نفوسهم، الصورة التي اذا ماتفتحت عليها النفس، حققت فيها الملأ الاعلى فنعمت بالخلود: فالنبوة (في «نبأ» وشقيقاتها: «نبغ» و«نبع»: صورتها الحسية) تكشف عن الملأ الأعلى والاخلاق (من خلق وهذه من خرق بإبدال «الراء» بحرف «ل») ترسم السبل التي ترتقي عليها النفس في تحقيقه.

وأما الاريون، أبناء الارض، كما ادعته الاسطورة اليونانية وكما أيد ذلك ممثلو هذا الفرع، فانهم قد استغرقوا في تجليات الوجود واكتشفوا النظام الذي يسطري عليه هذا التجلي: النظام الذي يبدو في النفس عقلاً وفي المجتمع شريعةً، وفي الطبيعة قانوناً، والذي اجملته الفلسفة اليونانية بكلمة «عدل».

واذا كانت العبقرية السامية قد تميزت بالنبوة والأخلاق فأفصحت بالأولى عن الملأ الأعلى ورسمت بالثانية الصورة التي بها يتحقق في النفس، فان العبقرية الآرية قد كشفت، بالعلم عن هذا النظام، كما انها فتحت بالصناعة، طريق السيطرة على الطبيعة التي انطوت عليه.

ولئن كانت خاتمة حياة «سقراط» برهاناً على نشأة العدل السماوية كان مشيئة «المسيح» صورة الحياة المثلى التي اذا ماتمثلتها النفس تمثلاً

رحمانياً ارتقت الى مصدر هذه النشأة . ولقد ختم الاسلام هذه المرحلة التاريخية اذ أن فاتحته « الرحمة » (بسم الله الرحمن الرحيم) وقوامه العدل.

وما المرحلة التاريخية الحديثة إلا بعث التراث اليوناني فقد ابتدأت باكتشاف الأرض ووسمت للانسان قاعدة عمله في الوجود ، وتم هذا الكشف وشيدت قواعد هذا العمل ، على العلم ، في اتجاه هذا التراث وعلى ضوئه .

وانها (أي هذه المرحلة) تستكمل شروطها عندما تستيقظ الأمة العربية (ينبوع الشعوب السامية) التي يتمثل فيها القطب الآخر لهذا التراث ، فترتقي الانسانية حينئذ نحو الملأ الأعلي ، ارتقاء متناسباً مع فسحة أفق الحياة المستحدثة .

وشقيقات كلمة « فضيلة » تكشف عن قابلية حدسها لهذه الاتجاهات المتباينة : انبثاق وفيض ، من جهة ، ورسوخ ونظام ، من جهة ثانية :

فيبدو اتجاه « الفيض » في « الفضل » الاحسان والابتداء به بلا علة ، و « الفاضلة » الدرجة الرفيعة في الفضل ، « وتفضّل » على ، « التفضيل » ، « استفضل » منه ، و « الفضالة » ..

ويبدو اتجاه « النظام » في « فضل » : كان ذا فضل ، وهي حالة مستقرة ، ومنها « فاضل » و « مفضال » و « فضال » و « فضل » .

سواء أحصل ذلك عن قابليـة انطوت عليهـا النفس بالفطرة ، أم عن عادة بذتها الارادة .

وهذان الاتجاهان ، كلاهما ، ينطوي على درجات متمايزة وكلمة « خير » تكشف عن الاتجاه الأصيل لحـدس الفضيلة ، وتزيده ايضاحاً فهي بكونها من «خرّ» خريراً الصورة الصوتية البدائية المتضمنة فيضاً ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تشير الى الاصطفاء بانجاه الينبوع «تخيره» ، اختاره ، «الاختيار من جهة والى مصدر هذا الينبوع من جهة أخرى الخير حصول شيء ما على كمالاته (وهو الاصل والشرف ..)

فالفضيلة اذن تحقيق هذا الخير وخاصة تحقيقه في العالم (فاض ،فضاء) وما المال « ماتميل اليه » الا الوسائل التي يتبلر فيها هذا الخير المتفاوت الدرجات .

« فالخيرُ » و «الفضيلة » كلاهما متلازم وهما متنامان واذا كان الخير في اتجاه الملاء الأعلى « فالفضيلة » فيض نحو الناس . ولما كان «الخير متسامياً فالارتقاء اليه يتحمل أيضاً كل الدرجات : درجات تعينها الهمة التي انعقدت عليها نية الحياة من الوجود ، فأوجبت الجهد اللازم لتحقيقها .

كما أن الفضيلة أيضاً تتعين مرتبتها بشمولها الذي ينطوي على تاريخ

حياة محققها ، وبمدى فيضه على الناس علماً وعملاً و « الفضيل » هو كالشمس التي تقتات المخلوقات من فيضها وتهتدي الى أهدافها علـى ضوئها ، وهو الى البطولة أقرب منه الى التقوى .

ولئن كانت النفس بالنية تتفتح على الخير وبالهمة ترتقي الى درجاته فهي بالفضيلة تكتسبه وبه تنمو ، اذ أن النية ، من النفس « كالرشيم » من الحياة التي انعقدت عليه . فكما أن « الرشيم » ، بانتقاله الى طفل فصيّ .. يفتح مشاعر الأمومة عند والدته فيغني نفسها بهذه المشاعر ، كذلك النية ، فانها بتحققها ، تفتح النفس التي انعقدت عليها وتنميها .

ولما كان الذهن العربي قد أدرك ، حدساً ، الشبه بين « الحياة » و«المعرفة» المنبثقة عنها ، فانه قد عبر عنهما بنفس الصورة اذ قال : عقد الجنين ، وعَقدَ الزهر كما تنعقد النفس على المعرفة (العقيدة) .

واذا كانت المعرفة الكونية قد تلتبس في الذهن بالتداعي (مما حمل «دافيدهيوم» على ارجاع العـلم الى التداعي بالاتصال والى العادة التي ينطوي عليها هذا التداعي)، فالمعرفة الرحمانية وحدة حياتية متفاوتة المدى من حيث العلم والعمل وهي تلزم صاحبها على التحقق مثلما تلتزم الأم بجنينها .

وما العمل ، في المعرفة الرحمانية الاصورة العلم المتحققة : هذه الصورة

التي ، بالنية تحدد شكلها وبالهمة تعين مداها ، والتي هي من معرفتها كالبوادر (Expressions) من شعورها (èmotion) اذ ان وحدتها الحياتية تتحقق بتجاوبهما تجاوباً مستكملاً شروطه الفنية .

وبينما تندرج «البوادر» بتفتح المداد الذي انعقدت عليه بنيتها ، فالمعرفة الرحمانية تحقق كلاً من تجلياتها في علمها وعملها : بالاختيار وباصطفاء الحالات المختارة .

في علمها حيث توجب العقيدة ، بحسب عمقها في الوجود ، الخيالَ المناسبَ لها بالفسحة (كتناسب البدن ، الذي تبدو به الحياة ، مع المرتبة التي اختارتها في السلسلة الحيوانية فيحقق هذا الخيال ، حينئذ ، في النفس القيمَ الانسانية التي انطوت العقيدة عليها مثلما يحقق نموُّ أعضاء البدن الغرائز التي تتبلّر بها : وان النفس لتقتاتُ بالحقيقة التي بعث بها هذا الخيالُ كما يقتاتُ البدن بالاشياء التي تمثلها .

على أن لا الصور ولا الخيال الذي أنشيء من هذه الصور لا تستوعب معنى العقيدة : والنفس لا ترتقى الى هذا المعني الا بالنهج الفني فقط : النهج الذي تستجمّ به الصور ، المقتبسة عن اوجه العقيدة المختلفة ، استجماماً ، بحيث ينكشف لها المعنى حقيقةً .

وهذا الاستجمام هو الذي يقضي باختيار الصور واصطفائها ، على

درجات متفاوتة ، بحيث تدرك النفس عندئذ ، الغاية والوسيلة المؤدية اليها ، كما انها تدرك أيضاً مجمل الجهد اللازم لتحقيق هذه الغاية ، فلذلك تتحدد مسؤليتها بالهمة اذ ان كل تقصير عن الحقيقة يحرم النفس منها سواء اكان ذلك عن عجز أم عن خطأ .

واذا ما استغرقت النفس في هذا الاستجمام وسهت عن تلازم بدنها فأهملت دعوة كل من اعضائه الى حاجاته ، بدت حينئذ ، في الوجدان النزعات ، التي تتمثل بها هذه الاعضاء بجمهرة من الصور المستقطبة تعبيراً عن رغباتها ، فأشكلت هذه الأحــلام على النفس اصطفاءها ، وعرقلت عليها سيرها فتعثرت الارادة بذلك ، ويشتد الجهد بنسبة ما تبدو هذه النزعات عنيفةً .

على انّ عنف هذه النزعات قد ينتج عن عطب اعترى البنيــة ، وقد يكون ذلك على الخصوص بتأثير وراثة متدنية حاصلة من تصالب متدنٍ ، فتضمر فيها ، بتداخل ميزاتها المتباينة قاعدةُ الخصائل الكريمة هذه القاعدة التي تدعو القيم الانسانية الى تعديل عنف هذه النزعات وتوجيه منظومتها ، فتوفر بذلك على النفس الجهد اللازم لادارتها .

وليس عبثاً اذا قيل : « الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون اذ أن الاصالة توفر على صاحبها الجهد وتقيه من المأساة Le tragic هذه

المأساة الحاصله، في نفس الفرد، من اختلال العلاقة فيها بين السماء والارض، الملأ الأعلى والطبيعه. وعملاً اذ با تبدو الحقيقة في الوجود وبتجاوب وجهتي هذه المعرفه الرحمانية نتحقق وحدتها: وجهة تنكشف بها. نفس، علماً، وأخرى ترتسم بها في الكون عملاً.

وان بدت صورة النية مرتسمة على سياء صاحبها (النية التي تحققت بهذا العمل) فهي تبقى مطبوعة في بنيته أيضاً: مثلها كمثل الموجة التي تدل آثارها على شكلها، الآثار المحفورة في صخور الشاطىء فهذه الصورة لا تكشف عن هويه صاحبها فحسب بل انها تشترك أيضاً في تحديد مصيره اذ أن مجاريها المطبوعة في بنيته تدعوا معناها الى العودة (العادة).

ولما كان الخير متسامياً، فان العادات التي تنطوي عليها البنية متفاوتة أيضاً بالتعالي، وقد تبلرت بها تقاليد المجتمع. وما دامت هذه التقاليد تتجاوب مع تلك الخيرات فتنعكس قرارتها على قدر الذين تجسمت فيهم هذه القيم: ينعم الجمهور بعهده الذهبي: العهد الذي تبدو فيه الفضيلة علماً وعملا فيضاً وعادة.

ولكن اذا ما عجز هـذا المجتمع عن اخضاع القدر لمشيئته فانجرف، هو، بتياره، زاح، حينئذ، أبناءه عن حقيقتهم فحجبت

نفوسهم عن هـذه الخيرات .مثلمـا يحجب الغيم عن الأرض، النجوم المطلة عليها بنورها فباتت هذه النفوس في ظلمة، قلقة مضطربة .

يختل في هـذا المجتمع نظام القيم فتستأثر بالمادية منها بالانسانيـة وتطغى عليها القوه الغاشمة ، فتبرز الانانية وتندفع الميول الدنيئة ويصح حينئذ قول النبي : « يا أولاد الأفاعي » .

وهيهات تحاول بعض النفوس الكريمة في هذا الانهيار العام ، أن تكتشف ، بحرصهـا على التقاليد الموروثة ، قبس النور الباهت المنبعث من تلك الذكريات القديمة ،فلا يدخل ملكوت السماوات من لم يولد ولادةً جديدة .

تلتبس ، في هذا العهد ، الفضيلة بالتقوى ، ومع ان القيم الاجتماعية منظومـة (système) اذا ما زاحت بيتهـا عن معناها أمسى المجتمع مشلولا كأني به جسم خرجت فيه العظام من حقهـا فلم تبق فيه المؤسسات العامة ولا الكلمات التي تلخصها سوى أصداف تقلصت منها الحياة فجافت . وهذا ما قد انتهى اليـه العرب في مرحلة تاريخهم الراهنة .

فليس على أبناء هذه الأجيال التعيسة ، المتحيرة ، الا أن يتركوا

الأموات وشأنها ، فيصبوا بأنفسهم الى السماء حيث تفيض الحياة ، فتجرف بفيضها ماتراكم عليهم من قيم بالية . وينبثق النبي من صميم الأمة حاملاً الى المجتمع رسالته ، الرسالة التي يتجلى ، بها ، للناس معنى هذه المرحلة التاريخية ، ويبدو حينئذ نظام القيم الانسانية متجسماً في ذاته .

لينبثق النبيّ من الأمة كما ينبثق بركان من قلب الأرض فيدفع بقشرتها ، ويشق طبقاتها متصاعداً ، فيُخرجُ منها ماضمر في جوفها . فهو يزيح أيضاً القوقعة التي نسجتها الاجيال من قيم بالية فينهض بهذه النفوس الخائرة ، المسترسلة في انحدارها ، الى حقيقتها ، بحيث يتجلى معنى هذه المرحلة وبتجاوب تجلياته في كل نفس تعود الميول الدينيئة الى منظومتها منسجمة فيها ، فتبرأ هذه الميول ، بانسجامها ، من دنائتها وتتلاشى الأنانية الحاصلة من استغراقها في الأشياء : وحينئذ يتحقق ملكوت السماوات على الارض . ويعود بهذا المجتمع وكأني به انشودةٌ ، قد استجمعت في ذاتها ، كل من الحانها . كافة أصداء أخواتها فتحولت بهذا الاستجمام الى وحدة أشرقت فيها الأنشودة بكاملها .

فالفضيلة ، في هذا البعث ، هي بالنية المنطوية على العزم ، بالنية التي

تتفتح بها النفس على السماء اذ : لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وبالشجاعة (شج) التي تشق بها الارادة حجبها فتعلو الى حيث تتجاوب هذه المنظومة وهي ، أيضاً بالتضحية حيث أن صورة صاحبها باشعتها السحرية ، تزيل الفواصل وتصهر الحجب الغليظة فترفع النفوس وترتفع هي بذلك.

فالفضيلة هي اذن بين النبوة والعادة . اذ أن النبي معنى هذه القبة (المرحلة التاريخية الصاعدة) حيث يكون لكل فلكه في هذه المخطط (الطوبوغرافيا) الجديد .فهومنها بمثابة الخلية المولدة [cellule génératrice] واذا كان المعنى بالنبوة يتجلى في الوجود فانه بالفضيلة يرتسم على الارض، فالأفاضل في العالم ، كالاحياء الذين تختزن في بدنهم فيوضات الشمس.

ليست الكلمة العربية من اسرتها ، فحسب ، كالعربي من أمته أو بالأحرى كالخلية [La cellule] من الكائن الحي ، بل هي كذلك ، من منظومتها اللسانية :

فالخلية تنشأ من كائنها فتنمو، في معنى تطوره العام ، متضمنة ميوله ومعبرة عنها من وجهة نظرها الخاصة .

والعربي منبثق عن أمته حامل ميولها كقابليات تصبو الى الوجود

فيحقق منها ما انسجم مع محور شخصيته ضمن بيئته العامة (الطبيعة المجتمع)

والكلمة العربية ، كذلك ، بصورتها وبما تنطوي عليه هذه الصورة من معنى ، هي كاتجاه من منحن معين ، تعبر عن تجلي بنيان الامة في برهة من تطورها. وما اللسان العربي الا منظومة صوتية تتجاوب بها هذه التجليات ، وهو يعكس صورتها ويتبع مصيرها.

ولما كانت الأمة تنشىء كيانها (في عهدها البدائي او الجاهلي) بغريزتها ، تحقيقاً لذاتها فقد كانت هذه المؤسسات متلازمة ومتنامة اذ هي تعبر عن وحدة سماوية تتدفق فيها الحياة فتزهو بها تجلياتها ، وكان شعار العربي في هذا العهد الذهبي البطولة : البطولة التى تحقق بها الحياة غايتها والتي كان يكسو روعتها بالصور الشعرية اللائقة بها.

فلما زاح هذا المجتمع عن حقيقته وانحرف العربي عن محور شخصيته انقطعت عنه ينابيع الحياة وضمرت فيه مظاهرها وضرت نزعاته المثالية وتقلصت عنه العواطف الرحمانية ، فضاقت دنياه (أفق غاياته) واستغرق في الاشياء فأمسى مادياً أنانياً دنيئاً.

ولقد بدت مظاهر هذا الانحلال على لسانه أيضاً ، اذ به يتلخص بنيان الأمة وعليه تنعكس تطورات مجتمعها : فانحرفت فيه الكلمة عن

منظومة معاني اسرتها ، وانزوت عن شقيقاتها وأمست ، بانقطاعها عن خيالها الحسي الذي تستمدمنه نسغها وتتعين به قيمتها كالورقة التي قطفت من غصنها فجفت وتناثرت في مهب الرياح .

ملاحظة : ١

اذا كان قوام المجتمع العربي : الاسرة ، فالاصالة في الاسرة فتلازم ابنائها بالمسؤولية، فان قوام اللسان العربي ايضاً : المصدر وتلازم مشتقاته بالمعنى ، والصورة الصوتية البدائية التي ترجع اليها ، بالتسلسل ، كافة هذه المشتقات .

لذلك ينبغي ، في دراسة اللسان العربي ، أن يتعين :

اولا . ـ منظومة معاني أسرة الكلمة المبلرة في شقيقاتها ، للارتقاء بعدئذ الى الحدس الذي انبعثت منه هذه المنظومة وذلك بالاستناد على الصور الحسية والمفهومات العامة التي تمثل اتجاهاتها الأساسية .

ثانياً . ـ أن نحدد نشأة هذه الاسرة ، واذا قضت الحاجة أن نتابع تطوراتها بالتسلسل الى أن تنتهي بالصورة الصوتية المقتبسة مباشرة عن الطبيعة .

ثالثاً . ـ أن يتعين اتجاه الذهن العربي الذي تنطوي عليه مراتب الاشتقاق ويكشف عن طبيعته وعن طبيعة الموجات التاريخية التي

دعت الى تحقيق هذا الاتجاه البادي في المشتقات ، أي تعيين علاقة الامة العربية في بيئتها (الظروف التاريخية) والكشف عن ماهيتها من خلال هذه العلاقة

رابعاً . - أن تحصى وتميز النهج التي سلكتها العبقرية العربية في بناء لسانها (راجع «نمو اللسان») .

ملاحظة : ٢

اذا كانت الاصالة والانسجام يعينان معنى الكلمة العربية ويحددان من تطورها ، فهما يردعانها عن الشذوذ أيضاً ، وان هذه النزعة لتبدو في كافة مظاهر حياة صانعها ، حيث يردع تلازم المسؤولية العربي عن الخطيئة في سلوكه وعن الخطأ في تفكيره : (« خطيئة » و « خطأ » من «خط»)وهما يمنعانه من الخروج على التراث الذي حددته الفطرة تراث فيه المؤسسات العامة صورة المصمم الذي انطوت عليه فطرته . يظلان دعامة لهذا المصمم وبتساندهما تتقوم الشخصية العربية وتنمو ولكن نمواً يحدد من فسحة أساطيرها .

فلا العربي ولا كلمته التي تعبر عنه لم يصيرا مركزاً لاستقطاب مناقب مختلفة يفسح فيها الخيال لتحقيق الميول المكبوتة .

مع أنه في الامم الحديثة ، قد خرجت الكلمة وصاحبها أيضاً عن المنظومة التي انطوت عليها الحياة، فاستبدلاها بقوام خارجي: فعوّض: الفرد عن الاسرة بالشركات الخصوصية ، والكلمة المستحيلة الى رمز تحددت قيمتها بالاسلوب الذي تنسجم فيه ، وأمسى كلاهما يتلقى النظام من الخارج مفروضا عليه وكلاهما يخضع للقدر ويتكيف بتموجاته :

بذلك تتميز الثقافة العربية ذات الخلود (النمو والاستقرار) عن المدينة الحديثة ذات الطابع السرمدى (سرى ، وبدى) والتي شعارها الصيرورة !

* * *

الفصل الرابع

البيان المرئي

بالصورة الحسية اذن يتفتح الذهن العربي ، وباشتقاق هذه الصورة المقتبسة عن الطبيعة يتوضح . واذا ما استجمت ، هذه التجليات الحسية والمفهومات التي تجملها في وحدة ادراك انكشفت في وجدان العربي الحدس التي انبثقت عنها منظومات معانيها عن بصائر في بنيان الوجود (في بنيان الحياة ومن خلالها في بنيان الكون) وتحقق حينئذ ، بهذا الكشف ، الملأ الأعلى في نفسه فاصبح ذاتاً متمتعة بالخلود .

واذا كانت السماء والنجوم المنبثق بعضها عن بعض ترمز الى قرارة نفسه المتجلية بهذه البصائر فعقليته أيضاً تعكس المنظومة السماوية التي بها تعين حدود التجاوب بين هذه القرارة وبين ذلك الرمز صورتها أي بين قطبي الوجود .

فان كانت النفس تتفتح باتجاه احد هذين القطبين ، فقد تحدد مدى

هذه الفسحة بالهمة التي انعقدت عليها الحياة في مرتبة ارتقائها في القطب الاخر . وما المكان (L,espace) ذو الابعاد الثلاثة (من «ما» «وكان») الا ظل هذا التجاوب الملقى على عالم الامكان «Le monde possible» ظل يمثل بعدُه الثالث (العمق) هذا الارتقاء .

ولئن نزعت النفس الى المكان كنقطة خيال فهي تبقى عند حد المادة التي تنطوي على المدة والامتداد بتغلب اتجاه هذا الاخير : أي المادة التي إطارها الرياضيات وكساؤها الحالاتُ المتجليةُ بها النفس احساسات .

فان صبت هذه النفس الى المعنى مثالها فهي ترتقي اليه باستجمام تجلياته : استجماما بدرت به صورتها في الكون بدناً فعبرت به عن وجه نظرها في الوجود .

ولقد بنت الحياة هذا البدن قاعدة عليها ترتقي النفس ، وآية بها تهتدي : اذ تتلازم عناصره في وحدة عضوية يتمم بعضها ببعض .

وهي التي قد ميزت هذا البدن بالاحساسات والمشاعر معاً اذ انها بالاولى حددت علاقته بالاشياء ، وبالمشاعر عينت خاصيته بالنفس .

تغلق وجهتا المؤثر بالاثر فلتبس الحس بالشعور بنسبة علاقة الاول ببنان البدن . فتكشف هذه النسبة عن غاية الحياة من الوجود : اذ أن

الاحساسات تبهم وتتضاءل ، رغم خطورتها ، والأعصاب المختصة بها تتناثر باقترابها من بذان البدن وهي أي لاحساسات ، بنسبة ماتستدق تلتبس بالألم .

كأني بالحياة قد تقصدت من ذلك أن تقي الانسان من الاستغراق في هذا الاتجاه : استغراقاً قد يصرفه عن غايته الأصلية، ولذلك اكتفت بتجهيزه إجمالاً بشعور عام ، سواءاً كان باتزان البدن (équilibre) فيحصل عنه السرور ، أم بنموه (croissance) فينتج عنه الفرح بينما تتفاوت أجهزة الحواس انتظاماً ، بنسبة نزعتها إلى العالم الخارجي وتحررها من مشاعر (affections) البدن ، والسمع والبصر يمثلان غاية هذا الاتجاه ويكشفان عن صبوة الحياة إلى الأنامية (objectivité) ، كما تكشف الحياة العملية أيضاً عن نفس الاتجاه : إذ تلتبس فيها الأشياء بالنزعة إليها فتتشبع بمشاعرها ، وتستغرق الحدس الاجتماعية في تقاليدها فيطمس على قيمها ، ويتغلب حينئذ نمط التداعي على التفكير : فتستقطب المشاعر إليها ويحصل عن هذا التداخل الأساطير المعبرة عن مفاهيم هجينة (batars) وعقيمة (stériles) ، فيضيق بذلك أفق الحياة وتلتبس السماء بالأرض ، فينتج عن هذا الالتباس الوثنية ، وينتهي المجتمع ، حينئذ ، بالحالة الابتدائية (L'état primitif) .

أما إذا ما استجمت الحياة ذاتها ، وتحررت من حاجتها ، فإنها تهتدي حينئذ إلى حقيقة معناها فتدرك غايتها : إذ أنها تكتشف بتمايز قطبيها ، سبيل العلم والعمل ، السبيل الذي تقوم به نُهُج تفكيرها ، وتخضع الطبيعة لمشيئتها ، فترتقي حينئذ نحو بديانها العقلي (الفلسفة التحليلية).

وبهذا التمايز أيضاً تتفتح الحياة على صميم الوجود فتفقه ما انعقدت عليه طبيعتها الاجتماعية ، والقواعد الاخلاقية التي انطوت عليها هذه العقائد . وبتجاوب هذين القطبين تنتهي النفس بالبصيرة التي تنكشف لها بها حقيقة الوجود .

فالانسان كائن بين السماء والارض : إذ أنّ بدنه من الأديم (آدم ، أديم ، ادامة ...) وروحــه منبثقة عن روح الاله وهي على صورتـه (أسطورة آدم) ومـا البدن والروح إلا وجهتا الوجود : وقد حصل تميزهما من وجهة نظر المعرفة الانسانية فقط .

فإذا توجهت النفس نحو تجلياتهـا وتلقتهـا بالحواس صارت هذه التجليات بالنسبة إليها عالماً ، وإذا هي تفتحت نحو صميمها فأدركت المعنى أصبحت ملأ أعلى .

والعالم والملاء الأعلى هما (قطبا الوجود) اذ يتحدان بالبصيرة التي

رمزت الحياة إليها بالبصر صورتهـا الحسية لما تنطوي عليـه هذه من نور ووضوح .

وما مثل هذه المعرفة الرحمانية والفنية إلا كمثل الأم التى أدركت طفلها بحواسها وأجابت على هذا الادراك ببدور المشاعر التى تنطوي عليها نفس ولدها .

وإذا كان البدن يقتات بالادامة (الغذاء) فينمو بها وهو من الكون كالبرعم من شجرتـه ، فالنفس أيضاً تقتات بالحقيقة التى تجلى بهـا لها المعنى .

وإذا كان الشيء صورة النزعة الحسية ، فان للعقيدة أيضاً خيالهـا الذي تتحقق به ، وهذه العلاقـة النزوية (spontanée) بين الشيء وصورته وبين العقيدة وخيالها ، تكشف عن لغز الأديان في : كن فتكون . إذا أن الحقيقة المتجلية للنفس تبدر بمجرد اختيارها ، عملاً في الكون وإن هذه النزوة تميز الأمـة البدائية من الأمة المشتقة : تمـيز بين النزوة والإرادة لمـا تتضمن الأولى من إصابـة حدس وتوفير جهد .

تنشيء الأمة البدائية عالمها من صور حسية تتجلى بها الحياة في الكون ، ولئن كانت بعض هذه الاحساسات ، وخاصة مايتعلق عنهـا

بنيان البدن مبهما ، شعوريا (affeetive) ومستقلاً عن ارادة الفرد الذي تنشىء بواسطته هذه الأمة عالمها فقد وقف اختيارها عند حاستى السمع والرؤيه اللتين تتمتعان بالأنامية (objectivité) وبالاضافة إلى هذه الأنامية يمتاز الصوت بخضوعه للارادة (من حيث إيجاده وبعثه في الذاكرة) ويمتاز النور ، بوضاحته وبتزاوج ميزاتهما شقّ الإنسان طريق العلى .

لقد جُهز الفرد بالأذن واللسان عضوي السمع والتصويت . متلازمين ، ولما كان الصوت من بوادر الحدس (d'émotions ex pressions) ومعادلاً ، بالمداد الذي انطوى عليه ، للحركة العضلية المرافقة لحدوثه فقد آثرته النفس على هذه الحركة ، لما في ذلك من اقتصاد في الجهد وسهولة في الحفظ .

وليس عبثاً إذا اتخذت الحياة الأذن مقراً لاتزان البدن وكان الرقص ملازماً للعزف (Musipue) . فمداد الصورة الصوتيه وإن تحول الى عادة مستقرة في الدماغ بحيث يُخضع مفهومها الارادة ، إلا أن هذه الصورة تجمل المفهوم فقط ، وترمز إلى اغراضه (الشيء) مع أن تأثيره السحري في بنيان الفرد إنما هو بنسبة وضاحته أي قابليته لبعث خصائص الشيء في النفس، وتحويل الخيال بهذا البعث إلى حقيقة

مماثلة وهذه الوضاحة تحصل في الوجدان من تزاوج خصائص الشيء المرئية مع الصوت المعبر عن تأثيرها في النفس والكلمة، كصورة صوتية تشير اليها. وبتداعيها مع الامدّة المستدقة التي انطوت عليها حالاته المرئية تبعث بها بالإستناد على القدرة المختزنة في الدماغ، فتعيد بذلك إلى المفهوم عمل غرضه الأصيل: كأني بالدماغ والبدن الذي يستكمل به هذا الدّماغ شروط وجوده، أرضٌ تنبت فيها الافكار فتتحقق في الأمة البدائية اذن. تنسجم الاشياء المجملة بالمفاهيم العامّة المعبر عنها بالكلمات، وتكشف جملة هذه عن وجهة نظرها في الوجود بحيث تتحدد بهذه الوجهة صورتها المرتسمة في عالم الإمكان.

أليست الميول المنطوية عليها بنية الفرد هي التي تحدّد له انتباهه سواء في اصطفاء الذكريات أم الاحساسات فتعين له بهذا الاصفاء حدود مداركه التي ينشيء منها عالمه؟

فالوجود لم يكن بالنسبة الى النفس، على سطح واحد وهو وان بدا لها على هذه الصورة عند غاية تجلياتها (المكان) فانها ترتقي، عن طريق صميمها، في الاتجاه الاخر، وكل مرتبة تعتليها تبدر حدساً

(الهاماً) مستدعياً الخيال الذي به يتحقق ، فيبدو الوجود بهذه الخيالات المتناسبة الفسحة مع عمق حدسها ، مختلف الابعاد «en relief» .

على أن الخيال يستعير عناصره من الاحساسات والذكريات ، فالعادة الحاصلة من تداعي هذه الاحساسات ، والمشاعر الباعثة بالذكريات المحققة للميول النزاعة الى الوجود ، كلها تعرقل على النفس هذا الانشاء مما يؤدي الى التباس الشعور بالشيء ، وتقمص الحدس في مظاهر الطبيعة : التباس يستهدف العلم تمييزه ، وتقمص يحاول الفن ايضاحه .

ان الفنان لا يقف عند التقليد ، بل هو يتعداه الى الابداع : واذ يحاول الرسام أن يحقق حدسه بالاحساسات المرئية ومنحنياتها فان هذه تخرج بدقائقها عن صلاحية ارادته ، وتلجئه الى صور الاشياء . ومن المساومة بين طبيعتها الخصوصية وحقيقة حدسه يخلق بنات نفسه (اللوحات الفنية) .

وقد تتحرر النفس في المنامات ، الى ابعد من حدود هذه الاعتبارات ، بحيث يستقطب الحدس جمهرات مختلفة ومشتتة من الصور المرئية بياناً عن ذاته . ولم تنبغ الانسانية بعد الرسام الذي يتصرف مطلقاً بمادته كتصرف الموسيقار .

فان هذا يبدع أنشودته بمنظومتها العامة وبالحانها

تحقيقاً لالهامه ، وهو يستفيد خاصه من ميزة مستثناة ، ألا وهي تزاوج الاصوات بمداد البدن تزاوجاً كلياً بحيث يبعث بها في النفوس حية (vivante) ومتجسمة ولذلك التبس على الأقدمين ، العزف (Musique) بالسحر .

اما الشعر فهو مزدوج الطبيعة ، اذ يجمع بين الرسم والعزف (الموسيقي) فالشاعر يختار ، في الملأ الاعلى ، مداد الهامه الأصيل كاختيار النفس بنيتها . وهو يفصل هذا المداد المجمل بتموج عباراته (phrases) ويعين حدود هذه التموجات بالكلمات التي تنطوي على الصور المرئية بحيث يكتسي المداد ويزداد وضوحاً وبذلك يخلق الخيال المحقق لالهامه ، وبنسبة مايصيب الخيال حدسه ، بجملته وبتفصيلاته تتعين قيمة الشعر الفنية فيكافأ مبدعه قوةً وفرحاً ونوراً .

تبدر الأمة البدائية اذن ، في الكون ، حاملة سيماءها مجملة « en esquisse » فتتفتح عنها بتجارب تجلياتها بين قطبيها في عالم الامكان قطب ترتسم به في بنية أبنائها معرفةً متبلرة ، وفي الكون عالماً تنعكس عنه الطبيعة محددة امكانية ادراكهم ، وقطب آخر ترتقي اليه النفوس من خلال هذه التجليات المستشفة ، في تساميها بنور ذاتها .

وها نحن نورد بعض الامثلة المقتبسة من اللسان العربي ايضاحاً لما تقدم وتثبيتاً لبدائية الأمة التي أوجدتها .

فكلمة «نبّ» مثلاً المؤلفة من حرفي (نون) و(ب) تعبر بحسب مخرج كل من حرفيها : عن الصميم (النون) وعن الظهور (الباء) وبجملتها تفيد الانتقال من الداخل الى الخارج فالظهور والتعالي ... وعند التحليل تظهرُ كافة الكلمات المنتسبة الى أسرة هذا الحدس اتجاهاته الأساسية :

١ ـ لما كان الصوت أبرز ما يخرج عن صميم الانسان ، فانّ أكثر المصادر قد تضمنت مشتقات تشير اليه : « نبّ» التيس : صاح ،«نبأ» صات خفيفاً ، « النبأة» و«النبؤة» : الصوت الخفي أو الهاتف ، «نبج» كان شديد الصوت جافي الكلام ، «نبح» الكلب : صات ، «النبخة» : النكتة ، « نبر» المغني : رفع صوته بعد خفض ، « نبس» بالمجلس :تكلم نبض في المجلس : تكلم ، «نبض» العرق : تحرك وضرب « أنبض » القوس : جذبه ليصوّت به ، «انتبط» الكلام : استخرجه ، نبغ الرجل قال الشعر وأجاده .

٢ ـ هنالك اتجاه آخر ،تظهره على الخصوص الصور الحسية والخيال الذي انشيء منها ، وهو الصعود أو التعالي : «نبأ» الشيء ارتفع النبيء المكان المرتفع ،نبت : نشأ ونما (خرج من الارض) «نبث»فلان : غضب

(ظهرت كوامنه) ، «النبخة» : الاكمة« نبخ» العجين : اختمر وانتفخ الارض «النبخاء» المرتفعة . «المنبوذ» الولد الذى تلقيه أمه . «النبيذ» عصير العنب . « نبز »الغلام : ترعرع . «نبز» الجرح :تورّم . «النبض» القليل من البقل اذا طلع . « نبق » الشيء : خرج ، «نبك» المكان : ارتفع « النبكة » الاكمة ، « النبأة » المرتفع المشرف . « النبيء » من الارض : ما ارتفع . «النبوه» العلو والارتفاع .

٣ ـ ولما كانت الصورة الصوتية البدائية بيانية ونشأتها انسانية فان الحدس يتفرع الى المعاني الاصيلة الاتية : «النبوة والنبي » وصورته الحسية : الطريق الواضح والمكان المرتفع . والنبوغ والنابغ :غبار الرحى (الدقيق) والنبل والنبيل وصورتها الحسية : النبال والسهام . النبيه والنباهة : (اليقظة من النوم او الشرف) .

٤ ـ استعار الذهن العربي بعض الصور الحسية التي تزيد من ايضاح حدسه فتعين اتجاهاته الاساسية : منها : « نبّ » الماء : تسيل « نبض» الماء : سال أو غار : « نبع» الينبوع « نبط » الماء : نبع ، «نبغ» الماء ..

وبالنظر لتوضح الحدس بتجاوبه مع الصور الحسية ، فان آثار هذه الصور قد تنتقل نحو الداخل منها نبب الشجر : غرسه « نبث » البئر : نبشها وأخرج ترابها به ، نبش الشيء المستور ،

« نبض » الشعر : نتفه ، « نبط » البئر : استخرج ماءها . « استنبط » الشيء أظهره ، « نبق » الشجر غرسه مرتباً .

ولربما كانت هـذه الطريقة الأخيرة منشأ استعمال الاضداد في اللغة العربية .

يبدو التوافق في الامثلة المتقدمة ، بين المعقول والمحسوس دقيقاً ، والانسجام في معانيها شاملا ، رغم أن هذه الكلمات قد أبدعت في عصور متفاوتة وفي اقاليم مختلفة .

كأن هنالك عبقرية قد انطوت عليها نفوس كافة أبناء هذه الأمة فعبر كل منهم عنها من وجهة نظره الخاصة ، وهم منها يستمدون نسغهم ، وإليها يصبون كمثل أعلى وبها تنسجم ثقافتهم « بنيانهم الانساني » مع الميول التي تتضمنها نفوسهم .

ويؤخذ من هذه الأمثلة أيضاً أن الحدس فيها تتقدم على اصوره الحسية والمفاهيم العامة التي تحاول التعبير عن اتجاهاتها الاساسية كتقدم الميل على الاشياء « حاجاته » التي تحققه ، فيحدد انتباه الفرد ويوجه اختياره ، فيكشف عن قرارة الحياة المرتسمة على الكون بآثاره .

وهاك مثالا آخر تتقدم فيه الصورة الحسية على الحدس فيحصل

من تجاوبها تفتح الصورة الى مشتقات صوتية «كلمات» مشيرة الى خيال مرئي ، وتفرعُ المعنى في اتجاهات ملائمة لطبيعة المراحل التاريخية التي تحققت فيها العبقرية العربية : فكلمة «نسّ» ، مثلاً ، البدائيــة هي صوتية ـ مرئية : « نس » الحطب : أخرجت النار زبده على رأسه ، فالذهن العربي قد ادرك في هذه الصورة اولا الحالة التي ينتهي اليهــا الحطب في طبيعته ، ثانياً الزَبد الذي خرج منه . فخص هـذا الاتجـاه الثاني بكلمة «نزّ» الحاصلة بابدال حرف (س) بحرف (ز) شقيقتهــا في المخرج .

ولقد عبر هذا الذهن عن حدسه في الطبيعة الآخـذة بالضمور والجفاف ، بالصــورة الاولى اذ قال : «النسيس» و «النسيسة» الطبيعة ، بقية الروح في الجسد ؛ النميمــة والسعاية ؛ «النُسُس» : الاصول الرديئة ، «النسيس» غاية الجهد ، « النسيء » المخالط .. أما المشتقات التي تعــبر عن الصور الحسية فهي : «نسّ» الخبز : يبس ، أنس الدابة :أعطشها ، «أنسأ» الدابة دفعها عن الحوض، «نسأ» الشيء : أخّـره .،. ومنها بالتضاد : «نـأت الدابة : بداسمنها (بحيث أنهاأخرت في المرعى . . .)

واما كلمة «نزّ» المتفتح خيالها في اتجاه الزبد، فتتضمن أولاً صورة

الينبوع ، ثانياً الحركة البادية فيه ، ثم الصوت الحاصل عن هذه الحركة مثلاً : « نزّ » المكان : صار ذا نزّ «النزّ» الظبي : عدا . «النزّ» : الظريف الفؤاد ، كثير التحرك لا يقر في مكان . وهذه الكلمة تقابل تمام المقابلة كلمة spontanée الكلمة الافرنجية التي تعني بالاصل الينبوع (صورة الحياة المنبثقة «النزّة» الشهوة ، ناقة «نزة » خفيفة «المنز» : المهد . « نز » الظبي : صوت .

واغرب ما في هـذا الحدس أن كلمة « أز » تعني تصلب وتشدد وذلك بادخال الهمزة المعبرة عن الفعالية أي ان التكلف يجفف من النزة (la spontanéité) . ومنها : «نزىء» به : أولع به «نزب» الظبي : صوت النزب » ذكر الظباء والبقر ، « نزج» الغلام : رقص ، نزحت » البئر : قل ماؤها ، « نزره » استخرج ما عنده قليلا قليلا . «نزت» النابتة : قل لبنها ، «نزع » المريض أشرف على الموت ، « نزع » الولد أباه أشبهه ، «نزع» الى أهـله : اشتاق ، «النزيع» : الذي ينزع الى عرق في أهـله «نزغه» : حركه أدنى حركة ، «نزف» البئر : استخرجه كله «النزفة» القليل من الماء ، «نزق» الرجل : طاش عند الغضب («ق» للمقاومة ، وصورتها الحسية «نزق» : امتلا الى رأسه) و «أنزق» : تكلف النزق فدخول الألف (التكلف) قد حولها الى ضدها «انزق» الرجل في الضحك

أفرط فيه وأكثر. «نزل» : انحدر، «النزل»: المطر، «نزنز» الرجل حرك رأسه، «نزه» تباعد عن المكروه وكان عفيفاً»، «نزا» (وثب) «النزأ» و«النزوه» (impulsion) «نزأت» الخمر: وثبت من المراح، «النزوان»..

ملاحظة: عرفت الأمة العربية في الغرب، بطبيعة شعوبها (أي المتشعبة عنها) الهجينة بنيتها وثقافتها، ونسب اليها التجريد والشكلية اللذين هما من نواقص هجنائها (ses batards) الكلدان والاشور واليهود هذه الشعوب السامية التي تحكم بها التقليد بطغيان الدخيل عليها، مع ان اللسان العربي، وهو بدائي وعضوي البنيان يكشف عن صورة الأمة التي انشأته ويهدينا الى شمول الوصفية (qualité) على كافة مظاهرها، اذا كان العرب في جاهليتهم يسمون تقسيمات الزمان بحالات المكان المتلبسة فيها، وبتجيليات أمتهم التي يترافق ظهورها تاريخياً معها فأطلقوا على ايام الاسبوع أسماء «أول»، «أهون» «جبار» ، (دبار)، (مؤنس) (عروبة) ، تيار «تيار».

ولكن عندما انحدر المجتمع العربي في اتجاه تلك الشعوب المتجمدة استبدل هذه الاسماء بأخرى دخيلة على الذوق العربي وهي: «الاحد» «الاثنين» «الثلاثاء» «الاربعاء» «الخميس» «الجمعة» «السبت»

وكانوا يطلقون في ذلك العهد على شهور السنة الاسماء الآتية

«مؤتمر» ، «ناجر» ، «خوّان» ، «صوان» ، «رُني» «أئدة» «الأصم» ، «عادل» ، «ناطل» ، «واغل» ، «ورنة» ، «برك» .

وتبدو ، في أسماء الشهور المستعملة حالياً ، سيطرة الأجنبي شكلا وذوقاً : اذ هي :

«كانون الثاني» ، «شباط» ، «آذار» ، «نيسان» «أيار» ، حزيران (تموز) ، (آب) ، (ايلول) ، تشرين الاول ، تشرين الثاني ، كانون الاول

وأما ساعات اليوم فهي تكشف بوضوح أكثر عن الذهنية العربية الوصفية (qualitatif) والمستدقة (nuancée) فساعات الليل هي :

« الزلة » ، « الزلفة » ، « البهرة » ، « السحر » « الفجر » ، « الصبح » « الصباح » .

وساعات النهار هي :

(الزرور) ، (البزوغ) ، (الضحى) ، (الغزالة) ، (الهاجر) ، الزوال (الدلوك) ، (العصر) ، (الاصيل) ، (الصبوب) ، (الحدور) ، (الضروب

حتى أسماء الاعداد نفسها ، في اللسان العربي ، تحمل بصورة رشيمية (en germe) صفات نشأتها : إذ أن « الواحد» : من (حدّ – طرف) و « الاثنان» من (ثنى) و «الثلاثة» : من ثلة ، و «الاربعة : من تربّع .

فهذه النشأة ، وهي فريدة من نوعها ، تكشف لنا خاصةً عن تكوين الاعداد ، في الأصل ، من المكان .

يؤخذ من هذه الامثلة المتقدمة أن الذهنية العربية الخالدة (ذات الخلود) ليست مجردة ولاشكاية (وهاتان هما صفتا الشعوب الهرمة والمجوفة) وانما هي وصفية (qualitatif) بكافة مظاهرها ، وما الكلمات منها الا صور (ذات الخيال المزدوج : صور وصيرورة) تتركز على اتجاهات مدادها المختلفة عند تجليها ، فتعبر بها عن حدود نموها . وان تلازم هذه الكلمات بخيالات أسرتها يساعد دائماً على بعث الحالة الاولية وتجديد حيويتها ورونقها .

المترادفات

ان الكلمة العربية حيوية ، وهي من النفس ، عند استعمالها كالنفس من الملأ الأعلى ، عنها تتلقى حدسها ، وبها يتحدد مدادها « بدنها » ، وبتجليها الصوتي والمرئي تكتسي . وهي ، ككل كائن حي ، ذات فردية خاصة تتميز بها عن سواها .

لقد التبست هذه الحقيقة على الكثيرين من الدخلاء على اللسان العربي ، وخاصة على الاجانب منه ، كما تلتبس ، على عشيرة « نورية »

الكؤوس المختصة بانواع المشروبات المختلفة ، في قصر قدخان الدهر أهله فاحتل من قبل هذه العشيرة ، او كما يبدو للعامي الاختلاف في وظائف المقصات المستعملة في الجراحة طاسا .

ولئن كانت المدنية الحديثة تجيب على تفرع الاعمال باختراع الاوائل المختصة لاداء عملها ، فالذهن العربي أيضاً ، تحقيقاً لنزعته الى الابداع وتحرراً من العطالة المستحكمة بالاسم المألوف ، يجدد صفات المسمى بمشتقات هي كصور شعرية قد عميت عنها بصائر الدخلاء فتلقوها مترادفات منقلات ، وهاك بعض الأمثلة ايضاحاً لما تقدم :

١ ـ «الاسد» من (ساد) ، (سيادة) ، السيد (وظله : الاسود) من يحمى الذمار ، و«ساد» من (سد) : بمعنى أغلق حمـاه على الغير ، «الليث» : من القوة والشدة . «الزبر» : من (زبره) :منعه (أزبر) الرجل عظم جسمه . ازبأر الكلب : تنفش وتهيأ للشر (الأزبر) العظيم الهيكل «غضنفر» : من غض ونفر . فتنيد الاولى : ثنى وتشنج ، «الهزبر» : الشديد الصلب ، من هزبر : قطع) ، «الهيثم» من هثم : دق وسحق ، «الأصبح» بالنسبة الى طلعته : (الوضيء الوجه) ، «ورد» بالنسبة الى لونه ، «ضرغام» من ضر ورغم وهي من صفات الشجاع القوي. «السبع» المفترس من الحيوان .

ب ـ «فرس» من فر بمعنى طار أي سريع العدو . «حصان» : من حصن وتحصين ، فكأن صاحبه يتحصن به من الاعداء «جواد» : كريم بمعنى أنه يقدم على الخطر ويبذل نفسه في الاقدام . «المذكي» النجيب من الخيل . «سابح» بالنسبة الى شكل حركته السريعة في الركض ، «ضامر» بالنسبة الى بنيان جسمه . «أجرد» بالنسبة لشعره (الأجرد : القصير الشعر) . «أقب» بالنسبة الى قوامه (الاقب : المرتفع) . «كميت» بالنسبة الى لونه .

حـ ـ «حسام» من حسم : فصل ونزع ، «فيصل» من فصل ايضاً أثناء الضرب «قاطع» بالنسبة الى حده ، «ماض» سريع النفوذ في الضرب . «صقيل» : بالنسبة الى شكله (من صقل) . «باتر» «وبتار» من بتر : قطع بشدة . «أبيض» بالنسبة الى لونه . «ذكر» بالنسبة لصلابته وفعله .

لم تطمس على العجم صور الكلمات الشعرية فقط فتبدو لهم بانقطاعها عن خيالها المرئى مترادفات ، بل ان العادة ايضاً تفقد الكلمات رونقها فتمسى هذه حتى في نظر ابناء الأمة أنفسهم باهتة .

وهاك بعض الأمثلة التي هى اكثر استعمالا : «إبن» من «بني» (البناء ، والبنيان) . و «أخ» ، من «آخ» ، الصوتية ، البيانيـة ، وهى

تشير الى البنيان الرحماني المشترك (structure sympathique) وخصوصاً بدور هذا البنيان في الألم المشترك اكثر مما هو في الفرح المشترك ، و«عمّ» من «عمّ» الشيء : شمل الجماعة كلها . والعمومة الجماعة الكثيرة . و «خال» من «خال» فلان على أهله : تدبر أمرهم « وتحوّل » فيه الخير توسمه ، و«جدّ» من (جد) في أعين القوم عظم ، و(جدّ) كان ذا جد أي حظ ، و (جدّ) : صار جديداً ، و «صهر» . من (صهر) الشيء أذابه وانصهر فيه . و « الكنة»من « كنّ » الشيء ستره وغطاه واخفاه وصانه و «الحم» من «حمي » والآنسة ، و الانسان ، من الأنس (من أنس) . وعانس ، مقابل لها من (عنس) و (الزلمة) (Mannequin) من (زلّ) ، تفيد هذه الكلمة الهيئة والقد ، (الأزلام : الأصنام) . وكلمة (رجل) من (رجلَ) وهذه من (رجّ) : تفيد القوام . فتشير ها تان الكلمتان الى انحدار العربي نحو القيافة والهيكل وتجرده من الخصائل الأساسية للانسان ، بينما ظل المجتمع مقراً للمرأة وهي وفية لتراث الاجداد بميزتها هذه فاحتفظ لها بالكنية المشتقة من « المروءة » .

الفَصْلُ الخَامِسُ

نمو اللسان العربي

ينمو كل كائن حي بتفرع الخلية الاولى والمولدة ، وبتلازم هذه الخلايا المتفرعة عنها وبانسجامها (تحقيقاً لما انطوى عليه رشيمه (من رسم من مصمم) تلازماً في مراحل تطور الكائن ، وانسجاماً بين أنسجته المتنوعة ، واعضائه المختلفة ، رغم ما يدخل فيها ظرفا الزمان والمكان من تفرقه .

فكيف يواصل هذا الرشيم نموه مطرداً فينتهي عند الشيخوخة بالصورة التي تتجلى عنها الصفات الخاصة بنوعه كاملة ، لولم تتقدم على تجلياته المتفرقة في المكان والمتتابعة في الزمان ، وحدة حيوية ، يعكس الزمان على المكان نمط تحققها ؟ ..

وكيف يحتوي هذا الرشيم من حيث هو مندرجٌ في المكان على هذه الصفات المتحققة عند استكمال شروط الشيخوخة فيكون قد احتوى على

ما يتعداه ، لو لم تكن هذه الصفات ملازمة المعنى المتجلي في الكائن ؟!
هذا المعنى ، وهو فوق المكان وقبل الزمان يصطفي تجلياته وينسقها عند اندراج مداده (بدنها) تحقيقا لوجهة نظره في الوجود . فيستمد هذا الكائن نسغه (القوة ، والنور ، والفرح) ومصممه ، من حيث يتجه نحو الملأ الأعلى ، ويستعير من الطبيعة بطريق الغذاء ، القدرة اللازمة لتفتح مخطط بدنه تحقيقاً لهذا المصمم .

كذلك هي الأمة البدائية ، إذ تبدو كافة مؤسساتها (عرفها وعاداتها أخلاقها وتشريعها ، فلسفتها وديانتها فنونها .. وحتى مخطط أبدان بنيها) متلازمة رغم تواصل تقدمها في الزمان ، وتفتحها الفسيح في المكان ، فتعبر تجلياتها هذه أيضاً عن وحدة سماوية (متيافيزيكية) قد انطوت عليها نفوس أبنائها الصادرين عنها والحاملين نزعاتها ، منها يستمد بنوها نسغهم وعنها يقتبسون مصممهم المشترك هذا المصمم الذي بالتجربة ، يكشف عنه ، والصور المقتبسة عن الطبيعة وبالخيال المقتبس من هذه الصور يتحقق .

بينما يتم نمو بدن الكائن الحي ، في وحدة من الزمن (unité de temps) وحدة معينة ومحددة يتفاوت فحواها بتفاوت درجات الأنواع .

فمؤسسات الامة تتقدم أبداً ، متحررة مما يقتضي تلازم مظاهر

هذه الوحدة من تجاوب في بنيان هذا الكائن ، وهي بذلك كشجرة سحرية تواصل نموها ، جذورها من السماء ، وما الطبيعة إلا حدود تجلياتها الملقاة على المكان .

وإن أنسجة هذا البدن وأعضاءه تتميز عن تلك المؤسسات بحيث أن الشكل (L'organe) في الاولى ملتبس بوظيفة (La fonction) فيخضع المعنى لضرورات المادة عندما يستخدمها أداة لمأربه ، مع أن الصور أي الثقافة (La culture) في المؤسسات الاجتماعية تنفصم عن الاداة (outil) أي المدنية (civilisation) إذ تأخذ الثقافة في الحياة الانسانية اتجاهاً منفصلاً عن المدينة ، بحيث تصبو في الاولى كافة نزعات النفس ، على اختلاف درجاتها في العمق ، إلى التحقق تحققاً كاملاً بينما تتجه المدنية نحو العالم الخارجي فتحاول ان تجمل فيه المادة ، وتقصر المسافات ، وتوفر بهذا التقصير الجهد اللازم لاجتيازها فتقرب عندئذ حالة الطبيعة بالنسبة للانسان من حالة بدنه ملخصها .

وإذا كانت المدنية متجهة نحو السيطرة على المادة فالثقافة تبعث في النفس عند استجمامها بالوحدة التي انبثقت عنها حية ومستضيئة بنور الوجدان ، فيرتقي الانسان بهذا البعث من الطبيعة إلى الملأ الأعلى .

فاللسان العربي من حيث تتلخص مؤسسات الأمة وتتعدل بما تشير إليه كلماته من اتجاهات ذهنية أصيلة هو نفساني النشأة واجتماعي النمو .

تكشف مفرداته (Vocabulaire) عن هذه النشأة وتشير قواعده إلى ذلك النمو.

ولئن كانت المصادر حدساً في بنيان الوجود فهي تتحول باندماجها في الوجدان إلى فعالية نامية فتحصل منها الافعال، وما الاسماء إلا ظل هذه الحدس، الملقي على المكان.

فمن خر مثلاً (وهي صوت الماء خرخر) يحصل: «خَرَّ» سقط من علو إلى أسفل، «خرب»: هدم (تأثير الماء في الاشياء)، «خربق» الشيء قطعه، «خرتَ»: ثقبَ، وضدها «خردَ» لم يثقب أي هو بكر بعد. «خرجَ»: برز، «خَردلَ» اللحم: قطع أعضاءه. «خرز» الجلد: ثقبه. وضدها «خرس» أي انعقد لسان عن الكلام. «خرشه» خدشه. «الخرشفه» تفيد نفس التعبير (en relief). «خرص»: حدر وقدر. «خرط» الورق: قشره عن الشجرة. «خرعه»: شقه. «خرِف» فسد عقله من الكبر. «خرق» الثوب: مزق. «خرم»: ثلم، ثقب. «خرش»، «خرفش»، «خرنفَ»... وكل هذه الأفعال تنطوي على نفس الحدس الاصيل، وما حصل الاشتقاق منها إلا تعبيراً عن المعنى المتفرع من تجاوب هذا الحدس مع الصور التي تحققه.

وهاك مثالاً آخر حيث يتوضح الحدس خصوصاً في اتجاه البنيان

الذهني ؛ فمن «بتّ» : قطع يشتق : «البتكة» : من الشيء : الطائفة أو القطعة . ومنها «بتل» الشيء ،قطعه وأبانه عن غيره ، ومنها «البتول» و «البتولة» ... ولكن هذه الصورة المادية البيانية تزدهر في الاتجاه الذهني : «بدَد» الشيء : فرقه . ومنها أيضا «بدَأ» الشيء : بَرأهُ (créer) و «البديء» (l,original) ، «المبدأ» (Le principe).

ومنها أيضاً : « بدع » أي صنع لاعلى مثال « البدعة » (Le chef d,oeuvre) ، و « البديع » : (Le créateur) ومنها أيضاً : بَدَه (surprendre) ، و «البداهة» (l,évidence) و « البديهي » (l,évident) و «المبدَه» : (l,improviste)

ومنها باتجاه الحسّ ، «بدأ» : ظهر . و « بدحه » بالعصا : ضربه . و «بدَن» ، و «بدر» ، «بدغَ» الجوزأو اللوز : كسره . و «بدلَ» الشيء اتخذ عوضاً عنه .

ولما كان نمو اللسان يحصل من اشتقاق الكلمات بتجاوب الحدس مع الصور الحسية ، اشتقاقاً تبدوفيه أولاً : نزعة المعنى الموجهة (قوام أسرة الكلمة ، والتفكير العضوي (pensée organique) وثانياً : الصورة الحسية المحققة لتجليات هذا المعنى (التفكير بالتداعي والصور الشعرية) ، فان الأمثلة التالية تكشف عن هذه النظرة وتوضحها :

«شعر» من (شعْ)، (sentir) و«شعور» (sentiment) و «مشعور» [senti] و«المشعر» و «المشاعر» [sentimentalité) و «المشعار» sentimental

وصورة « شعر » الحسية هي « شعر » و « أشعر » نبت عليه الشعر. فالشعور إذاً ينبثق من النفس كما ينبت الشعر من الجلد، والشعر إن هو إلا عبارة الشعور ومنها الشاعر و «الشعرور» من يتكلف الشعر، والشعار [l,embléme].

وإليك مثالاً آخر: «فك» (من فق في الاتجاه الحسي) فك الشيء: فصل بعضه عن بعض، «إنفك»: انحل. (وفي الاتجاه الذهني: «فك» الرجلُ: حمق في استرخاء «تفكك: مشى مشية خلاعه. «الفاك»: الاحمق جداً، الهرم، فالتراخي والبله يعبران عن نفس النظرة من وجهتين مختلفتين حسية وذهنية ونفس النظرة في «الخلاع» [l,imbécilité]، «الخولع» [l,imbécile]، و «الخليع» ...

هكذا يبدو تلازم المعنى بالصور، وبنمو هذه الاخيرة يتوضح المعنى وعلى الخصوص في الامثلة التالية: «أصل»، «أثل» «أسل»، «بسق»، «بثق» «بصق»، «حث»، «حس» «حص»، «نفت» نفث، نفس «نفص»، «بت» «بث»، «بس»، «درع»، «ذرع»، «ضرع»، «جهد»، «جهض»، «بدع» «بضع»، «الا بطع»، «جم»، «قم»، «كم»، «لسن»، «لغا»، «لغط»،

«سرى»، (ثرى) . وبالاضداد : (الظل) هو الفيء والقيظ . (أفرح)، (غم)، وبالتركيب أيضاً : (سرمدية) من سرى، ومدى ؛ (عرمرم) (الهزروف)، (الهزلول) ؛ (عندل) ؛ (عندليب) ؛ (عناكم، عنكبوت (عنج)، (عنجر)، (خرطبيل)، (شك) و (شربك) . ... الخ . وبابدال الحركات : (كشَ) : (مسك)، كُشَ) . شجع، (كِشَ) كان مسرعاً ماضياً . (منع) حرم)، (منع) قوي واشتد ؛ (عقر) جرح، (عقر) عقم (عقر) دهش .

الضمائر

يكشف تحليل الضمائر بدقة فائقة عن نشأة هذا اللسان النفسانية وهو يكشف أيضاً عن بنيان المجتمع العربي المتبلور في تحولات هذه النشأة اي في نموه فيوضح نظرة العربي المثالية (idéaliste) في العالم، (من وجهة نظر المعرفة بالطبع) بحيث أنه يدرك الكون خلال وجدانه وإن تعينت خطوط سيماء هذا الاخير بضرورات الكون الى حد ما .

. . .

العدد	الجنس			الشخص
	المذكر	المشترك	المونث	
المفرد		أنا		المتكلم
	أنت	...	أنت	المخاطب
	هو	...	هي	الغائب
التثنية		...		المتكلم
	...	أنتما	...	المخاطب
	...	هما	...	الغائب
الجمع		نحن		المتكلم
	أنتم	...	أنتنّ	المخاطب
	هم	...	هنّ	الغائب

يبدو في هذه الضمائر أولاً ان حرفي «ن» ، «ه» هما اساسيان ، فمقتضيات الجنس والعدد والشخصية قد أدخلت عليهما التعديلات المذكورة «ن» في التكلم والخاطب و«ه» في الغائب .

إن حرف «ن» بالاصل من «ن» الصوتية البيانية التي حصل منها أفعال : (أن) و(عن) و (حن) .. وأما الهمزة المضافة إلى ضمير المتكلم «أنا» فقد كانت بقصد الحركة ، وكذلك حرف » «الف» الذي ينتهي به هذا

الضمير ، وهو بالاصل «أنه» تمييزاً عن «أن» وتحريكا للكلمة ، وهي قد استعملت على هذه الصورة في الشعر القديم .

واما ضمير المخاطب « أنت » فقد حصل من « أنا » المتكلم باضافة حرف «ت» إليه ، إذ أن هذا الحرف من أخوات «دا» «ذا» ، عبارتي الاشارة ، فهي تعني اذاً «أنا» المشار إليه ، (أي المخاطب) . وما تحريك «التاء» على الكسر في المؤنث إلا بياناً عن النسبة أي نسبة المرأة للرجل

و «أنتما» في مخاطب المثنى قد حصلت من جمع المخاطب « أنتم » ، وذلك باضافة (الالف) إليها ، الحرف الذي يفيد المقابلة او الاشتراك ، ضاربٌ ، في الفاعل ، وضارَب . في فعل المشاركة)

وأما الجمع «أنتم في المخاطب فقد حصل باضافة (م) إلى المفرد في المذكر ، و (ن) إلى المفرد في المؤنث ، بياناً للحدس في العدد ، وتمييزاً في الجنس ، وكلاهما متقاربان من التنوين ، ومن علامة جمع السالم الحاصلة عن هذا التنوين وحركة الضم بقصد الانسجام مع العدد ، وما الشدة في (ن) النسوة مع الحركة التي تعتليها الا تعبيراً عن التفخيم والركون.

فجمع المتكلم « نحنُ » حصل بادماج « ح » بين النون الاصلية ، ونون الجمع تمييزاً لها مع الانسجام في بنيان العدد . فحرف «ن» علامة الجمع تشترك مع المؤنث بلفظها ومع المذكر بحركتها (الضم) ..

فجمع المتكلم « نَحْنُ » حصل بإدماج « ح » بين النون الأصلية، ونون الجمع تمييزاً لهما مع الإنسجام في بنيان العدد. فحرف « ن » علامة الجمع تشترك مع المؤنث بلفظها ومع المذكر بحركتها (الضم)...

وأما حرف « هـ » فهو ندائي الأصل، من « هُوْ » (المخففة بـ « هُـو » اللفظة العامية لضمير الغائب المذكر، و « هِيْ » للمؤنث) وحرف (و) للتجانس مع « هـ » كما أن حركتها على الفتح انما هي بقصد الأيقاع.

وإن « هِيَ » حاصلة من المذكر، وبالنسبة اليه، أي أن حركة الكسرة ومفخمها حرف « ي » كلاهما يفيد النسبة. وهنا زيدت « ي » للتجانس مع حرف « هـ »، وكان تحريكها على الفتح بقصد الايقاع أيضاً.

كذلك « هما » ضمير المثنى الغائب، فإنه حاصل من « هُمْ » ضمير الجمع، باضافة (ألف) بياناً للتثنية، كما أوضحنا ذلك في مثنى المخاطب.

و « هُمْ » جمع الغائب المذكر حصل من « هُوَ » باضافة (م) و

« هُنّ » باضافة « نّ » المشددة على نفس الطريقة التي تكون بها جمع المخاطب .

ثانياً : لقد ميز الذهن العربي ، كما بدا ذلك في التحليل المتقدم ، الجنس ، والعدد ، والشخص ، (من حيث هو حاضر : متكلم ومخاطب وغائب) ...

أما الجنس فينقسم إلى مذكر ومؤنث (فيدخل هذا الذهن تحت طائلة الحياة كافة الأشياء) هذا التقسيم يتجه في معنى الفعالية (actif) أو الركون ، (passif) وهو ينسجم مع تقسيم الزمان إلى مضارع وماض والأسماء إلى فاعل ومفعول ، ... وإن تشكيل المؤنث من المذكر باضافة الكسرة التي تدل على النسبة من جهة ، واقتصار التثنية في « هُمَا » و « أنتما » على شكل المذكر ، وخصوصاً فقدان التثنية في المتكلم من جهة ثانيـة ، كل ذلك يشير إلى تفوق الرجل على المرأة في بنيان المجتمع العربي : (الرجل قوامون على النساء) .

وأما العدد فيكشف لنا أولاً عن تكون الفرد عن الطبيعة (أنا وهـُوَ) ثانياً ، حصول الجموع من الفرد (أنتم ، هُم) ، ثم حدوث التثنية عن الجمع : انتما هما فيؤخذ من هذا الكون ان الشخص كذات متفوق على الجمع الحاصل من صورة ذهنية (تبرز جموع التكسير بوضوح أشد هذه الناحية) ، وان المثنى ،

عدا عن أنه متأخر بالظهور عن الجمع ، فهو يكشف عن بنيان الزواج الأصيل للمجتمع العربي ، وما تعدد الزوجات الا حالة شاذة ودخيلة على العرب .

وأما الشخص فانه ينقسم إلى فصيلتين الحاضر والغائب : الاولى من (أنا) البيانية الأصل ، والثانية (هو) الندائية ، تفيد البعد وباتجاه الذكرى فتلتبس بالأشياء .

ثالثاً : إنّ الضمير وإن دلّ على الاسم فهو بالحقيقة يتقدم عليه من حيث الظهور لأن نشأته انسانية ، وهي مستوحاة من تجربة بدائية ، وطبيعية .

رابعاً : يدل الضمير ، بالأصل ، على نزعة الانسان إلى استعمال الرموز ، أي اختصار الصور البيانية واستعمال الجزء بدلاً من الكل .

« التصغير »

تنطوي القواعد العامّة أيضاً على ما يكشف عن الذهنيّة العربية في اتجاهاتها الفنّية والاجتماعية والفلسفية . . .

فالتصغير مثلاً ، وهو تقدير سخريّ (appréciation péjorative) يجيب به الذهن على الأشياء فيلقي عليها بهذه الإجابة هالة من العواطف تتكيف بحسب طبيعة المسمّى المصغّر .

والتّصغير ، بذلك ، نفساني ّ واضافيّ فيكاد يشتمل نطاقه على كافة المسميات : الاسماء ، الصفات . . . حتى أسماء الإشارة ومشتقاتها والضمائر النسبية ، وأفعال التعجب ، والأعداد ...

وعبارة التصغير إنما هي إضافة حركة ضم إلى الحرف الأول من المسمى (وذلك بياناً للفاعلية) فإدغام ثاني حرفٍ منه على الفتح مع (ياء) إضافيّة مثلاً (نَهر) : نُهَيْر فالتعديل الحاصل في بنية المسمى: حركة الضّم ، ياء النّسبة ، الفتح (بياناً للسّكون) ، الإدغام ، كلٌ ذلك يدلّ على فعالية خانت فيها الغاية بدايتها فتقلّصت . وتلك صورة فنيّة عبّر بها الذهن العربيّ عن احدى نزعاته السخرية .

وبياناً لإضافيّة هذه الصّور ، وقف التعديل الحاصل في بنيان المصغّر عند حرفيه الأوّلين في الثلاثي : (مثلاً : « رجل» : رُجَيْل « كاب » : كايب (محتفظاً بالحرف الآخر مع الإعراب .

ولمّا كان التّصغير إضافياً تحكم حرف (ي) أو مخففها حركة الكسر اللذان يعبران عن النسبة في توجيه حركات المسمى أو تعديل حروف العلة : (« ناب » نُيَيْب ، «عقرب» عُقَيْرب ، «عصفور»: عصيفير) :

«الثلاثي» على وزن «فعيل» ، «الرباعي» على وزن « فُعَيْعِل »

« والخماسي » على وزن « فعيعل » (إذا كان رابع حرف فيه علة ينقلب الى « ياء ») : «مفتاح» : مفيتيح .

وتبدو نزعة الذّهن العربي الفنيّة خصوصاً في التعديل الذي أدخِلَ في بنيان الكلمة الصوتي حفظاً للايقاع : فاذا كان الحرفُ الثاني من المسمى « ياء » تبدلّت حركة الحرف الأول من ضمّ إلى كسرة : « بيت » بِبيت ، « شيخ » : شييخ .

وللضرورة نفسها أيضاً أباح هذا الذّهن إضافة « ياء » إلى ماقبل الحرف الأخير في المصغر المبتور رمزاً إلى الحرف المحذوف: «عنكبوت» : عنيكب «سفرجل» : سفيرج .

ومن أجلها كذلك ، أبيح حذف « ياء » التأنيث في الخماسي فعوّض عنها بـ « ياء » مندمجة في صلب الكلمة قبل الحرف الأخير : « حبارى » : حُبَيِّر .

وبسببها أيضاً ، تحوّل أحد حرفي العلة إلى « ياء » وسقط ثانيهما إذا انتهى الرّباعي والخماسي بهما .

* * *

تكشف هذه الأمثلة عن مرونة الذهن العربي بالاضافة إلى نزعته الفنية ، فيكيفها حسبما تقتضي أحكام البيان مشيرة بذلك الى

أنّ الشكل يخضع لمبدأ تلازم الصورة مع المعنى (راجع المنظومة الصوتية) .

ولمّا كان التصغير حالة اضافيّة ، ملقاة على المسمى فقد احتفظت فيه الكلمة بشكلها الأصلي « ازرق » : ازيرق ، « معطف » : معيطف .

وحتى الحروف الملحقة بالإسم ، اذا دلت على المعنى الأساسي ، فانها تبقى أيضاً : مثلاً . علامات التأنيث (« ء » ، « ي » ، « ة ») . « طلحة » طُليحة ؛ « حبلى » حُبَيْلى ، « صحراء » صحيرا ، و « ياء » النسبة عبقري » عُبَيْقريّ ، و « النون » في جمع المذكر السالم « مسلمون » مُسَيْلمون ، و « نون » التثنية « مسلمان » مُسيلمان ، و « التاء » في جمع المؤنث السّالم « مسلمات » مسيلمات ، و « النون » في الأعلام « رضوان » رُضَيوان ، وفي الاسماء « زعفران » زعيفران ، » افعوان « أُفَيْعَوان » ، « سكران » سكيران .

وبالتّصغير ترجع الكلمة الى شكلها الأصلي فيبطل عنها حكم القواعد الصوتيّة السابقة ، اذ أن ضرورته قد زالت .

(١) يفكّ الإدغام « تل » تُلَيْل ، قيمة قيُيمة

(٢) يُعاد حرف العلة الى أصله (باب) بُوَيْب ، (ناب) نُيَيْب ،

(٣) يبعث الحرف المحذوف ، (جدة) وجيدة ، (شية) وشية (أب) أبيّ ، (أم) أميمة ، (أخت) أخية ، (شمس) شميسة .

(٤) يحذف الحرف المضاف : (ابن) بُنيّ ، (اسم) سميّ ، فهذه القاعده تكشف عن نزعة الذّهن العربي الى الأصل ، الا اذا دعت الحاجة حرصاً على بيان المعنى الفنيّ ، فيدخل عليها حينئذ تعديلات سواء بالاضافة أم بالتعديل (سماء) سمية ، (ماء) موية ومويّ ، (شاة) شويهة ، (شفة) شفيهة (أصل) أُوَيصل ، (شاعر) شويعر ، (رجل): رويجل ، (دخان) دُويخن .

هكذا يتوضح الذهن العربي وينمو اللسان من تجاوب نزعتى المعنى . نزعته نحو الأصل فالاستقرار ، ونزعته نحو التسامي (بتحقيقه الشكل الاكمل adequate) فالإبداع والإيجاز انما هما احدى نتائج هذه النزعة الفنية .

فالإيجاز في التّصغير يتناول الحروف التي تزيد عن الرّباعى واذا كانت هذه الحروف متفاوتة في القيمة بالنسبة لمعنى الكلمة ، فإن الاصطفاء يتمّ فيها :

أولاً : (في الاسماء الصحيحة) حذف ما بعد الحرف الرابع «سفرجل سفيرج ، عندليب : عنيدل ،

ثانياً : بحذف الحروف الاضافية : « استبرق » : أبيرق ، إلا إذا تساوت الحروف فيتصرّف الذوق ، عندئذ ، تصرّفاً مطلقاً «حجمرش» حجيمر ، وحجيرش .

وإذا ما تباين عمل التصغير السخري مع طبيعة معنى المسمى بدا اتجاه هـذا الأخير بأكثر وضوحاً : « بنيّ » ، « أخيّ » ، أبيّ (الحنو) ، « دويهية » ، « الدّهيماء » ، « سنيّة » ، (الأحسن) صديق (الصديق الممتاز) .

يبدي الذهن العربيّ في الأمثلة التالية دقّة فريدة بحيث أنّ جموع القلة (على وزن « فِعلة » و « أفعل » و « أفعلة ») بحسب طبيعتها تنزّع إلى المفرد كغاية : « وُلدة » : وليدة ، « كلب » : أكَيْلِب « أعمدة » : أعيمدة ؛

بينما تخضع جموع الكثرة في تصغيرها إلى جمع المذكر : « شاعر » : شويعرون ، « دور » : دويرات .

ان الأسماء التي تجمع على القاعدتين تقبل التصغير على القاعدتين أيضاً : « فُتيّة » و « فُتيّون » .

اذا كان التصغير يكشف عن نزعة الذهن العربي الفنية ،فالنسبة ، بالاضافة الى هذه النزعة ، تظهر خاصة طابع المجتمع العربي في مرحلته : الاصلية الانبثاقية ، وانحداره الراهن نحو الشكلية . . .

لم يخص هـذا الذهن لسانه بصنف معين للنسبة فحسب بل انه قد ميز فيها درجات مختلفة وعبر عن كل من هذه الدرجات بعبارته الطبيعية .

ولما كانت حركة الكسر – وهي ، بحسب مخرجها ، تحصل بكسر الشفتين وعودتها نحو المتكلم – عبارة النسبة الطبيعية . وما الياء الا مفخم هذه الحركة . فقد خصها هذا الذهن بالنسبة بياناً لها .

فان بدت الكسرة معبرة عن الحالة العرضية فالياء – مفخمها – تفيد ، اذن ، استقرار هذه الحالة .

واذا ما اندمج هـذا الحرف أو تلك الحركة في صلب الكلمة فانهما يعبران ، عندئذ ، عن حالة منبثقة من ذات المفهوم ، ولكن بصورة عرَضية بالكسر ، ومستقرة بالياء ، حسب بيـان كلٍ منهما « نَبِـه » و « نبيه » ، « فِهم » و « فهيم » ، « فرِح » ، « عليم » .

وعندما تنسب الحالة الى المفهوم من الخارج تُلحق به عبارتها

أيضاً : « كسرة » في الجر (وهي حالة عرضية تتعلق بوظيفة الاسم في الجملة) و « ياء » في النسبة : دمشق : « دمشقي » ، أرض : « أرضي » . . .

ولم يقف الذهن العربي عند هذا التمييز ولكنه أدرك نزعة الحالات الى النمو بتطورها فعبر عنها بحرف أو اكثر مشيراً به الى اتجاه نموها : جسم « جسماني » ، نفس « نفساني » ، روح « روحاني » نور « نوراني » ، شعر « شعراني » ، أذن « أذاني » (ذو أذنين طويلتين) أنف « أنفاني » (متضخم) .

وتبدو هذه النزعة في اتجاه النمو بوضوح أشد وخصوصاً في الصفات : أحمر « أحمري » ، أصفر « أصفري » ، أخضر « أخضري » .

ولئن كانت النسبة تعود الى المفهوم ذاته ، فان عبارتها « الياء » تلحق بأصل الكلمة المعبرة عنه فتحذف الحروف المضافة الى الاصل أو يبعث بها إذا ما حذفت منه سابقاً .

أولاً . تحذف علامات التأنيث : مكة « مكي » ، شيعة : « شيعي » ، حبارى « حباري » .

ثانياً . ـ تحذف « ياء » الالحاق : حبركى « حبركي » ، قبعثرى : « قبعثري » .

ثالثاً . ـ تحذف علامات الجمع والتثنية : مسلمون « مسلمي » هنـدات « هندي » ، الحرمان « حرمي »، فرائض « فرضي » صحائف « صحفي » .

رابعاً . ـ تحذف « ياء » النسبة المندمجة سابقـاً في الكلمة . جزيرة « جزري » ، فريضة « فرَضي » ، مدينة « مدني » .

ورعاية لمبدأ الاصالة ، تبعث عنـد الحاجة الحروف المحذوفة من الكلمة : يد « يدوي » لثة « لثوي » ، عدة « وعدي » ، شفة « شفهي » حي « حيوي » .

حتى أن هذا الذهن ليتعدى حدود البعث الى الابداع فمن كي « كيوى » ، ومن ما « ماوي » و « مـاهى » ومن لا « لاوي » .

وعندما يتعارض وضوح المعنى مع الأصالة ، يؤثر الذهن العربى المعنى على القاعـدة . فمن أخت : « أختي » أو « أخوي » ، ومن بنت « بنتي » أو « بنوي » ، طبيعـة « طبيعى » و « طبعى » ، « مدينة » : « مدِيني » و « مدني » .

أما عندما تدعو النزعة الفنية الى بعض التعديلات على هذه القاعدة العامة ، فان هذه التعديلات تجري حينئذ باتجاهي الرشاقة والايجاز على

أن يحتفظ المعنى بوضوحه : مَلِك « مَلَكيّ » ، كَبِد « كبديّ » ، طيّ « طائي » ، فتى « فتوي » عصا « عصَويّ » ، بيضاء « بيضاوي » ، سماء « سماويّ » ، اميّة « أموي » ، سقاية « سقائي » شاه : « شاوي » و « شاهي » .

وفي الرباعي يصبح الاحتفاظ بحرف (ي) الرابع اختيارياً : ملهى « ملهي » و « ملهوي » ، معنى « معنيّ » و « معنوي » .

وأما الخماسي فيحذف الحرف (ي) الخامس اضطرارياً : مصطفى « مصطفيّ » .

النسبة بين مرحلتين

في المرحله الانبثاقية كان الذهن العربي يقتصر على الاسماء والصفات في انشاء النسبة .

وعندما أخذ هذا الذهن يتجوف عمت النسبة بتحقيق [réalisation] كافة الاشكال فمن (لو) : (لويّ) أو (لووي) ومن (كم) : (كميّ) ومن (ماهو) : ماهي ...

وفي تلك المرحلة الانشائية كانت تتميز أسماء الاعلام العربية عن الأسماء الأعجمية : وهذه الاخيرة كانت تخضع لكافة التحولات التي يستنسبها الذوق العربي ، والاعلام العربية وحدها وهي التي كانت

تحتفظ ابداً بشكلها، الا في الأسماء المركبة، تجنباً للركاكة، فتلحق النسبة باحد مقطعيها فقط : كلاب (كلابي) ، المدائن (مدائني) ، الأعراب (اعرابي) ، عمران (عمراني) ، زيدون (زيدوني) .

وفي الأعجمية : (سجزي) من سجتان ، (اصطخرزي) من اصطخر ، (رازي) من الري .

وفي الاعلام المركبة : (برقي) من برق نحره ، (أنفي) من أنف الناقة ...

ولكن عندما انحدر هذا الذهن طمست عليه الفوارق بين الأعلام والجنس، وبين الأصيل والدخيل ... والتبست عليه الركاكة بالرشاقة حتى انتهت بالعامية فمن مصطفى : «مصطفوى» (الركاكة) ومن دواة (دواتي) ، ساعة (ساعاتي) [اهمال الاصالة] لووى (النسبة الى شكله) ، (رامي) : هرمزي) .. الخ .

اسم الكيفية

كنا قد أوضحنا في بحث النسبة الحدس العربي بتمييز الصفة أو الحالة المنبثقة عن ذات المفهوم ، من الصفة المنسوبة اليه . فقد عبر الذهن العربي عن حدسه في الحالة الأولى بالكسرة أو بحرف الياء مفخم الكسرة مندمجة في صلب الكلمة . وعبر عن الحالة الثانية باحدى هاتين

الحركتين إلا أنهما ملحقتان بالكلمة . وكنا قد ألمحنا أيضاً إلى أن هذا الفرق ليكشف عن اتجاهي البنيان النفساني ، أي الانبثاق والتلازم . انبثاق في الحالة ، وتلازم في النسبة ، بحيث تتوضح الحالة المنبثقة ، فتحقق (النهج التحليلي) .

والمعرفة وان ابتدأت بالتلازم فهي تنتهي بالانبثاق غايتها (البصيرة) فتسير بذلك على عكس نمط الوجود . واذا كان الخيال يحصل من انعكاس الاشعة المنبعثة عن صورته ومن تحدد هذه الاشعة في المرآة ، فالأشياء والطبيعة المتألفة من هذه الاشياء ، هي أيضاً خيال الحقيقة المنطوية عليها (نوساً) . ولكنه على عكس السابق خيال يحصل من تحقيق امكانيات علمنا وعملنا في الكون .

ولئن كانت المرآة توقف الاشعة ، فالكون يكشف بالنسبة للنفس عن الوجود ويحققه . وهذه الامكانيات وان بدرت من فوق المكان موحدةً فهي بتحققها تبدو من خلاله متفرقة ، وذلك بتلازم حصولها مع حدوثه (أي المكان) فاذا ما استجمعت هذه الأشعة «الامكانيات المتجلية» في وحدة ادراك « بصيرة » انقشع حينئذ حجاب المكان وزال الافتراق فسطعت آية [idée] الطبيعة حقيقةً في النفس . وان النفس لتنمو بتجاوب قطبيها ، الخيال وآيته أو الطبيعة ، والملأ الأعلى . أما

الفكرة المجردة فكائنة بين الخيال والآية . إذ أنها تقتبس عن الأول عناصرها وعن الثانية وحدتها وقد خص الذهن العربي بعبارة الفكرة المجردة اسم الكيفية . (فأنشأه من النسبة باضافة (ة) الى آخرها) فأشار بذلك الى تولدها مع المكان وتثبتها فيه .

فمن عقل ، مثلاً عقلي ، عقلية ، ومن ذهن ، ذهني ، ذهنية ، جسم ، جسماني ، جسمانية ، روح ، روحاني ، روحانية .

اسم الظرف

المكان والزمان : Espace et temprs : لقد انشأ الذهن العربي من المكان والزمان ظرفاً مشتركاً فعبر عنهما بصيغة واحدة ، وشمل بهذه الصيغة اسم المصدر أيضاً : مَصرَع ، مطعم ، منهل ، مرفق ، مقام ، منجى ، مثوى .

يبدو من هذه الأمثلة أن هذه الصيغة قد انشئت من الماضي الثلاثي باضافة (م) الى الحرف الأول منه مبنياً على الفتح وبتحريك الحرف الثاني منه على الفتح دائماً في أسماء المصدر والمكان والزمان المشتقة من الافعال التي يتحرك الحرف الثاني منها على الضم أو على الفتح فقط . . . أما اذا تحرك هذا الحرف في الفعل على الكسر فيتبعه

اسم الظرف بحركته (مع الاحتفاظ بما تقتضي الضرورة الصوتية، أي قواعد الاعلال) .

ان نشأة هذه الصيغة من الماضي واقترابها بالشكل من اسم المفعول اقتراباً يتحول الى مماثلة تامة في الافعال التي تزيد عن الثلاثي، مُلتقى مُتدحرج ليكشفان لنا عن التباس المصدر بالزمان والمكان في ذهن العربي وتغلب طابع المكان عليهما « بناء الماضي على الفتح يدل على اندراجه في المكان) وتبدو هذه النزعة بوضوح اكثر في الحالات التي تحددت فيها هذه الاسماء ب (ة) التي لها علاقة بالمكان نحو، محمدة، مذمة . .

وان تشكيل هذه الصيغة من كل فعل ليدل على التباس فعالية الذهن العربي الخاصة، بهذا الاطار العام وحصول اسم المختص أو المحل (من حلّ) من هذا الالتباس .

ويشير الذهن العربي بالفرق بين ملازمة حركة الفتح الثانية لاحد حروف المصدر، وبين احتمال تبديلها بالكسر في اسمى الزمان والمكان (اذ قد يكون هذا الحرف على الكسر في بعض احوال اسمى الظرف) الى تفوق أنامية otgectivité اسم المصدر على أنامية المكان . ومع ذلك فقد تشترك طبيعة هذه الفعالية الخاصة في تعيين اتجاهات الصيغة . اذ

أن طابع الزمان يبدو متغلباً في الكلمات الآتية ميلاد ميعاد (موعد) ميقات . وطابع المكان متغلباً في مشرب واسم المصدر متغلباً في : مآل ، مذمة .

ولئن اختار الذهن العربي اسم (المكان) أي الاطار العام من كان (احد الافعال الناقصة والمشتقة بالاصل من كنّ أي ستر وحجب) فهو يشير بهذا الاختيار الى اتجاهي حدسه الاطار cadre والحجاب (voile) لأن المكان كماهية لذاتها (Entité en soi) هو اطار عام للوجود وكمحل اندرجت فيه الفعالية اطار خاص (espace locale) فهو في الحالة الأولى يتعدى كل حد « illimité » وفي الحالة الثانية متواصل continue وهاتان الميزتان تكشفان عن كيان قد حصل من نزعتى الذهن العربي الى الحد الاعظم الممكن infinement grand والى الحد الأصغر الممكن infinement petite وهذا الكيان من حيث استقلاله عن كل صفة يتحلى بها مطلق ومتجانس homogéne .

تنحجب النفس بهذا الاطار عن قرارتها . إذ به يبتدىء بنيان فرديتها الذي تتلقى عناصره بحواسها المتجهة نحو تجلي الوجود : فيشف المكان بهذا التجلي وتنكشف به حينئذ قرارتها انكشافاً يحصل من التلاؤم بين هذه التجليات وبين نظرة النفس المختارة في الوجود (علاقة

الفرد ببيئته) ثم يسقط هـذا الحجاب اذا ما ارتقت النفس نحو الصميم فتتآخذ المعرفة بالوجود « البصيرة » ارتقاءً يتم باجمال تجلياته المتسامية بحيث تستغني النفس عن المكان فتصبح سُبُل الصعود معاني متبلورة في عالم الشهود (الثقافة الانسانية) فيبعث بها الذهن كما تبعث الاجسام بظلها الملقى مرتسماً على السطح .

اذا كان تفتح النفس نحو التجلي سبيل المكان فان استجام هـذه التجليات ايضاً يوجب سبيل الزمـان . وقد حصل الظرف في الذهن العربي من التباس هذين الحدين وما الكائنات (جمع كائن،كائني بالهمزة تفيد هنا انبعاث الفعالية في الكون مغشّاةً بالمكان كالنجوم المحتجبة بالغيوم) إلا مصادر تستدعي بنزوعها الى تحقق تجليات النفس الى ان تبدو في الكون موجودات .

ومن نزعة كل جلوة الى التحقق مطلقاً (أي الى ان تتكشف عن المعنى كاملةً) بدا الفرق بالنسبة الى النفس بين الامكان والوجود، فرقاً يكشف عن تواصل الكان في اتجاهي الحد الأعظم الممكن والحد الأصغر الممكن ويكشف ايضاً عن التزام النفس منهجاً فنياً في انشاء فرديتها مستكملة به شروط وجودها ، التزاماً قد اوجب عليها التفكير العضوي والمنظم organique et systématique مع الاعراض عن الشطط

في حدود الامكان والتلاشي فيها . اذ ليس من العبث ان نفر العربي من اتجاهي الأبد والأزل حيث يلتبس عليه المكان والزمان بما لانهاية له . فيقال مثلاً : أبد الحيوان أي توحش ، أبد الشاعر اي اتى بالعويص من المعاني . أبد الأمر اي نفر منه . ويقال ازل اي وقع في ضيق وشدة وأزله اي حبسه .

فهذا الالتزام قد نتج اذاً عن اختيار النفس سيماها التي تعبر بها عن وجهتها في الوجود وعن اصطفاء السبل المؤدية الى تحقيق هـذه السيماء حيث تتعين نزعتها في اتجاهي التفتح (المكان) والاستجمام (الزمان) .

ولئن استغرقت كافة الكائنات في منظومتهـا مندرجةً في المكان فظلت في حاضر دائم (وما اندرج القدر طوعاً الا لمشيئة الانسان حيث بدر في هذا الاندراج المتسامي ما انطوت عليه قرارة الوجود فاهتدى الانسان بهـذا البدور الى سبيل الحرية والابداع الدائم) فهيهـات ان يستوعب الواقـع (من وقع) الحقيقة ، والحاضر (من حض دعا) يضيق عن النزعة لذلك يتجه نحو المستقبل حيث تنعكس أمانيه باسمة تبشر بالمعنى كما يبشر الشفق بالشمس . أما الماضي (من مضي أي قطع) فهو مقبرة احلامنا المختنقة في المهد لذا بدا الزمن (من زم) بالتباسه بالمصدر قدراً محدداً لامانينا ومعيقاً لتحقيقها . إذ أن (زَمِـنَ) اصابته الزمانة

أي العاهة وكذلك (المزمن) ... والدهر (من دهر) وهو جزءٌ من الزمان يتضمن النازلة والنوائب .

فحدس العربي في أصل الزمان ، يشبه إذن حدسه في النزعة باتجاه أمامها (المضارع وعلامة إعرابه الضمة ، وهي تفيد الفعالية والانبثاق) وباتجاه ظلها الملقى على المكان والملتبس به (والماضي مبني على الفتح وهي علامة الركون والاندراج) وليس للتاريخ من معنى في حدس العربي الا بالنسبة لهذه النزعة .

لقد أوجد الذهن العربي كلمة أمدود (العادة والسنّة) وهي احدى مشتقات كلمة مدة ، امتداد ، مادة ، مداد والتعبير عن هذه النزعة لما لهذه من علاقة بمنظومة الأمدة systéme de Rythmes التي بها تتحقق .

ولئن كانت هذه النزعة نقطة انبثاق التجليات فان أمدودها يبدو محور استقطاب هذه الأمدة (استقطاب قد عبرت عنه العقائد العربية بالقبة صورة الوجود الحسية) . ولقد يستنفد هذا الامد رد حياة فرد أو جيل أو أمة بكاملها فيصبح مدار ثقافتها ومبعث كافة مظاهرها الأصلية . والمبني في هذا الحدس هو المعنى المتجلي بهذه القبة معنى تبدو تجلياته على درجات متفاوتة في كافة أبناء الامة .

وعلى شنق النور الحاصل من انبعاث النبوة تتجاوب هذه التجليات

وترتقي أبناء الامة نحو غاياتها، وبالبصيرة حيث تتآخذ المعرفة بالوجود تستغني النفس عن ظرفي الزمان والمكان.

اسم الآلة

ملاحظة: ١ –

لقد انشأ الذهن العربي اسمي الآلة والوعاء من اسم المكان بابدال حركة الحرف الأول من الفتح الى الكسر علامة النسبة. فانشأ اسم الآلة من النسبة بين المكان وبين الفعالية المندرجة فيه نحو مبرد، مبضع، مقص.

وأنشأ اسم الوعاء من النسبة بين المكان وبين الشيء الموضوع فيه نحو: محلب «حليب» ملبن «لبن» منبرة «إبرة».

وقد تدعو طبيعة المعنى الى تفرع بالبنيان فتتحول حينئذ هذه الصيغة من مفعل الى مفعلة نحو مبصقة، مكنسة، مسرجة. أو الى مفعال مفتاح، مشراط، وقد تفيد هذه الصيغة رسوخ الصفة في الشيء: ناقة مزعان، جارية معطار. فتكشف عن علاقة العادة بالمكان. وقد يسقط حرف «م» من هذه الصيغة فيحصل منها حينئذ الكلمات على وزن فعال: نحو لباس، لحاف، رداء، كساء، حذاء.

ملاحظة : ٢ –

إذا تغلبت خاصية الاسم في المصدر الميمي يتوجه حينئذ مفهومه الى التفرد في المكان فيتحول هذا المفهوم الى اسم يدل على الكثرة نحو: مسبعة (مأوى السباع) مذئبة (للذئاب) مضبعة (ضباع) مثعلبة (ثعلب) وفقاً لمبدأ الايجاز.

ملاحظة : ٣

واذا تكررت الفعالية في مكان معين تحول حينئذ هذا المكان الى اسم معمل أو اسم آلة نحو: برادة، كلاسة (كلس) جباصة (جبص). وتفيد هذه الصيغة للمبالغة كـ (علاّمة) وتبين علاقة الرسوخ والتكرار بالمكان.

ملاحظة : ٤ –

ترسخ كذلك هذه الصيغة بتحددها أو بالأحرى تفيد التحدد العادة والاستقرار يكشف عن علاقتها بالمكان نحو ساقي، ساقية، راوي، راوية.

يتبين من الملاحظات السابقة أن الذهن العربي يرى أن الالة تحصل من تحديد المكان بفعالية خاصة مع اعتبار نسبة هذا المكان اليها.

كنا قد بينا ، في مكان آخر ، إلتباس اسماء المكان والزمان والمصدر بصيغتها المشتركة ، وكنا قد أوضحنا نشأة الاعداد من هذا الالتباس .

وان كلمة (عـدد) ذاتها لتشير الى هذه النشأة والى اتجاهات الحدس في ذات الالتباس ، اذ ان : « عَدَّ » الشيء : حسبه . «عددت» زيداً صادقاً : أي حسبته وظننته . « عدَّد » الميت : عـدد مناقبه ووصفها ، « اعتدَّ » ، « استعدَّ » ، « العـداد » : مسٌّ من الجنون : « العدد » وجع يشتد في اوقات معلومة . فهذه المشتقات تكشف عن اتجاه الحدس نحو الكيفيَّـة ، بينما الأمثلة التالية تشير الى اتجاه «الكم» : « عدَّ » الشيء : احصاه ، « تعدَّد » : زاد في العـدد ، « العِدة » ، « العديدة » . . .

وهذان الاتجاهان يبدوان بوضوح اكثر في تعدّد الصّور الصوتية المختصة بانواع هذا الصنف :

١) اسم الوحدة : تحصل الوحدة من تحديد الجنس الذي تبدو صفاته خلال المكان إفرادياً (distributivement) : « حمـامة » . من حمام ، « بقرة » : من بقر ، « بصلة » : من بصل ، « تمرة » : من تمر ، [وقد

استثني الذهن من هذه القاعدة المصنوعات (إذ ان وحدتها تحصل من تحديدها اصطلاحياً .)] وهو قد ميز عنها الوحدة المجردة الحاصلة من اعتبار الصفات ، قوام الجنس ، اذاتها في وحدة ذهنية : « شاعرية » ، « ربوبية » .

وإذا كان الاسم ذا طابع فعلي تحوّلت الوحدة الى مرّة : « قعدَة » ، « فَرْحة » ، « وعدة » ، وذلك بحسب بنيان الصيغة بتداخل الفعالية من تحديدها .

٢) اسم الجزء: يحصل الجزء من تحديد الكلّ وبالنسبة اليه « قِطعة » ، « حزمة » : « كِسرْة » ، . . . وعندما ينقلب اتجاه الكيفية يتحول الى اسم نوع : « جِلسة » ، « قِعدة » ، « طِعمة » ، « قِتلة » : (قُتِلَ قِتلة سوء) .

٣) اسم القلة : وهو على صيغة « فعْلَة » ذات الشبه بالتصغير بحيث تبرز الحالة : « لُقمة » ، « شُربة » ، وخاصة في الاسماء ذات الصفة « خُضرَة » ، « حُمرَة » .

ولقد خصّ الذهن العربيّ اتجاه الكم بصيغتي « فُعالة » ، و« فعال » : « بُرادة » ، « كُناسة » ، « قُمامة » ، « قُصاصة » ، « قُمام » ، « كُسار » .

٤) يبدو ، في التثنية والجمع ، حدس الحالة (qualité) التي يجيب

بها الذهن على كمها بفتح صورتها الصوتية . فيثنى المذكر باضافة «ألف ونون » في الرفع و « ياء ونون » في الجرّ : وهذه الاضافة حصلت من تحول الحركة الى حرف العلة مفخمها و « واو » التنوين الى « النون » مفخمها ايضاً : كتاب : « كتابان » ، « كتابين » ، رجل : « رجلان » ، «رجلين» ، أمّة «أمتان» ، «أمتين» مؤمنة : «مومنتان» ، «مؤمنتين» .

تثنى جموع التكسير ، وأشباه الجمع أيضاً اذا ما عنت هذه في اتجاه التشخيص الافرادي : جماعة : «جماعتان» ، فرقة : « فرقتان » ، إبل : «إبلان» ، غنم «غنمان» ...

آ ـ مبدأ الاصالة : يبعث عند التثنية بالحركات والحروف التي حذفت أو تقلصت سابقاً : فتى : «فتيان» ، رحى : « رحيان » ، مثوى : «مثويان» ، حُبارى : « حباريان » ، عصا : «عصوان» ! قفا : «قفوان » ، رام : «راميان» ، راض : «راضيان» ، شج : « شجيان » أب : « أبوان » ، أخ : «أخوان» ، حم : «حموان» ، كساء : «كساءان» ، رداء : «رداءان» فراء : «فراءان» .

ب ـ مبدأ الرشاقة : قد تقضي رشاقة الصورة الصوتية ادخال بعض التعديلات على بنيان الكلمة فالخروج عن مبدأ الاصالة كما هي الحال في مفرده الرباعي ومثناه : ملهى و «ملهيان» ، أعشى «أعشيان» !

مسمّى : « مسميان » . مرض « مرضيان » ، حيث نجد حرف (ياء) مقلوباً عن (واو) .

يؤثر الذهن العربي أيضاً قلب (الهمزة) الى « واو » : بطحاء : « بطحاوان » ، حمراء : « حمروان » ، صفراء : « صفروان » ، علياء : « علياوان » ، وكذلك من : « إبنان » (بني) بنت : « بنتان » ، لغة (لغوة) : « لغتان » ، لثة (لثية) : «لثتان» ، هنة (هنوة) :«هنتان» وأيضاً من : معدي كرب : « معدي كربان » ، عبد مناف : « عبدا مناف » ، أبو زبير : « أبوا زبير » ...

ج ـ مبدأ الايجاز : ينزع الذوق العربي الى الايجاز وخاصة في مافوق الثلاثي إذ تحذف « الهمزة » و « الواو » ، « والياء » في خوزلي : « خوزلان » ، قبعثري : « قبعثران » ، خنفساء : « خنفسان » .

٥ ـ الجموع . لقد ميز الذهن العربي الجمع السالم عن الجمع المكسر فكشف بهذا التمييز عن حدسه في اختلاف الاشخاص عن الأشياء في حالة الجموع اذ تنفتح ، بهذه الحالة ، كوامن الشخص بينما تبقى الاشياء على ماهي وان الذهن هو الذي يلقي عليها مفهومه الحاصل من تبدل عددها . لذلك ، عبر الذوق العربي عن هذا الحدس ، في جمع الاشخاص بتفخيم اعراب الاسم محتفظاً بكيانه الفردي وفي جمع الاشياء بتصرف مطلق

في هذا الكيان مبدعاً الصور الصوتية الملائمة لتحولات المفهوم الحاصلة من تزواج الكيفية بالعدد .

من الذي يتمتع ، في الذهن العربي ، بمكانة شخص ؟ كل من انطوى كيانه على ذات أو انتسب اليها ، تمتع بالذاتية : المرء أولاً والمرأة ثانياً . أي الاعلام : محمد ، محمدون ، زيد ، زيدون ، وتصغير الاعلام : عثيان عثيانون ، وتصغير اسم الجنس العاقل : رجيل : رجيلون ، والصفات العائدة إلى المعقولات والصفات الفعلية المؤنثة بـ (ة) ، وأفعل التفضيل

ومنها أيضاً : أهل : أهلون ، عالم ، عالمون ، فهي تجمع كافة على المذكر السالم بتحويل التنوين في المفرد إلى مفخمه (ون) في الجمع .

وأعلام المؤنث العاقل : فاطمة : فاطمات ، والاسماء والصفات المتميزة بـ (همزه) أو (ي) : ذكريات . والصفات التي يجمع مذكرها جمعاً سالماً . تجمع أيضاً على المؤنث السالم بتحويل علامة التأنيث في المفرد إلى مفخمها في الجمع أي من (ة) إلى آت .

وعندما انحرف الذوق العربي أخيراً اخذت «تاء» التأنيث تلتبس عليه «بتاء الوحدة» ، وبهذا الالتباس شملت هذه القاعدة الحروف : ميم ميات . وكذلك الكلمات المستحدثة : تصنيف تصنيفات (والصحيح

تصانيف) وذلك جهلاً بالفرق بين الاشياء والاشخاص بين الوحـــدة الحاصلة من التحديد والوحدة الذاتية.

إن نزعة الذوق العربي إلى الاصالة والايجاز والرشاقة في البيان هذه الاتجاهات العامة التي قد أشرنا إليها سابقاً) تبدو في قاعدة الجمع أيضاً الاصالة : هند . هندات ، صلاة . صلوات ، دعد دعدات ، الايجــاز : حبارى : حبارات ، مصطفى مصطفون ، وأما الرشاقة فهي تبرز خاصة في جمع التكسير حيث يتصرف هذا الذوق بالحركات والحروف تحقيقاً لنزعته الفنية : قطعة . قطع ، أحدب . حدب ، بحر بحار ، قائم ، قيام ، بطحاء : بطاح ، ساحر ، سحرة وجه : أوجه، جزيرة . جزائر ، صديق اصدقاء ، صاحب . صحب، الاكبر . الاكابر ، ينبوع . ينابيع ، سواس . سواسية ، عنكبوت. عناكب ، سفرجل . سفارج ، مغربي مغاربة ، عذراء . عذارى . جان . جناة ...

ينسجم مع هذه النظرة في العدد ، حدس العربي في القدر أيضاً وهو يزيدها إيضاحا إذ أن المشتقات المتفرعة عن صورته الصوتية تشير إلى اتجاهات الكم أولاً . قدر ، قدراً ، قاس : قياسا (وهي من «قدّ» أي قطع) ، ومنها : المقدار والقدر ... وثانيا: اتجاه القوة «قدَر» قدرة على الشيء . قوي عليه . ومنها «القدرة» ، و « الاقتدار» ، و «المقدار » ،

و « القدير .. وثالثا القيمة والمرتبة « قدر » الله قداراً . عظمه ، ومنها . «التقدير» والقدار (البصير) وفيها اتجاها الكيف والكم معا . وإن كلمة قدر تلخص هذ الاتجاهات فهي تعني مبلغ كون الشيء ، وكونه متساويا ، والطاقة والقــوة ، ثم الحرمة والوقار ..

وان هذا الحدس ليكشف عن نظرة العربي الرتيبة (hiérarchique) في الوجود حيث يكون لكل فلكه الخاص ، وبمدى هذا الفلك تتحدد قدرته وبمرتبته يتعين قدره في سلسلة الوجود : فكأن الوجود في هذا الحدس منظومة قد انطوى كل من تجلياته عليه كاملاً وهي تحقق من قرارتها بنسبة ما تستجم في وحدتها من تجلياته المتجاوبة .

ولئن كانت كل من هذه التجليات وحدة من حيث هي متصــلة بالوجود ، منطوية عليه فهي تبدو كثرة بتجليها خلال المكان ، بدواً قد اقتضته نزعة كل منها إلى التفرد بانشاء ذاتها فاختيار النهج الخاص في هذا الانشاء اختياراً ينطوي على الاصطفاء والاستجمام . وإن هذه الكثرة تظل متحلية بالوحدة الحية ذات الامدة المتلازمة والمنسجمة ما دامت تقترب بالبنيان (srructure) الحاصل من النظرة المشتركة في الوجود .

وبالرحمة (sympathie) يهتدى إلى هذه القرار ، والعــدد ، بنزعته الكثرة المتآحدة والوحدة المتكاثرة ، يشير إلى أن الحياة ليست انطباقاً

على الكون بل هي تفسير بدىء (يبـدأ في الوجود) يكشف عن نظرتها من عمق في اتجاه الامتداد مرتقياً باتجاه هذه النظرة من استجمام هذا الامتداد .

وما المعادلات العددية التي تحددت منظومتها بطبيعة الاشياء إلا خيال هذا البنيان الملقى على المكان . . .

ولئن تعين هذا القدرْ في الملأ الأعلى فقدرته تبـدو مندرجة في الكون في فلك محـدود ، إلا أن الانسان ، وإن تألف بدنه من أديم الارض فخضع لنظامها منبثق بنفسه عن الاله (من روحه) ومصنوع على صورته ، وبالنية على الخير ، أي التسامي نحو الملأ الأعلى ، تتوجه هذه النفس إلى المعنى صانعها ، وعن معاودته إياها تبدو الحقيقة فمثلها كمثل حرجٍ ، بتجاذبه مع الغيث ، تفتح عن الأزهار في الوجود . . .

بين الاسم والفعالية

« قيل : في البدء كانت الكلمة ، أما أنا فأقول في البدء كان العمل (الفعالية) » « غوته »

لقد أجمل (غوته) بهذه العبارة اتجاهي المدنيـة الحديثة والثقافة العربية المتفرعة بالشعوب الساميـة ، إلا أنه بمحاولته تمييز هذين

الاتجاهين بالتضاد (par oqposition) بدلاً من التبـاين (dielactique) قصر عن إدراك الحقيقة قصوراً ألزمته به الظروف التاريخيـة ، إذ أن المدنية الحديثة قد انبثقت عن القرون الوسطى ذات الطابع السامي : المسيحي ـ الاسلامي. ونمت جواباً (en reaction) على شطط اتجاهات تلك الثقافة : جواباً على ثقافة قد تجوفت كافة مظاهرها من قيمها بانحراف المجتمع فيها عن حقيقته . وليس عبثاً أن نفر (غوته) وممثلو هذه المدنية من أشكال الثقافة السامية المجوفة فسها بهذه النفرة ، عمـا تنطوي عليه هذه الاصداف من قيم انسانية خالدة .

ولقد كان للعلوم الاسمية أيضاً (السحر ، التنجيم التقدير) وهي ملتبسة عند العوام بهـذه القيم ، تأثير في حجب هذه الاخيرة عن البصيرة ، كما زاد خطأ الترجمة هذا الحجاب كثافة اذ أن العبارة بالأصل هي (في البدء كان الاسم وليست الكلمة) .

ولئن حملت ثقافـات الشعوب السامية طابعـاً اسمياً ، تشير اليه كنيتها وتصرح به دياناتها وهو (أي الاسم) يبدو في مطلع الكتب المنزلة كما ظل أيضاً محور ثقافتي بابل ووادي النيـل فان حدس الاسم في اللسان العربي ' ينطوي على اتجاهات السمو والتسامي ' وما السماء صورة الوجود ' إلا احدى شقيقاته : (الاسمـاء تنزل من السماء)

وإذا طغت هذه العلوم (الاسمية) عن تلك الشعوب في حالة انحلالها فحجب بهذا الطغيان ' مفهوم الاسم عن البصيرة فلأنها تجيب على نزعة الحياة الى ما يتعدى حدود الحاضر . نزعة ملتبس خيـالها بحدس العدد والقدر .

ومما زاد هذا الالتباس انحرافا فهم حكمة (ان الاسماء تنزل من السماء فهما شكليا فباتت الكلمة في هذه العقلية المنحرفة معادلة لمسماها والارقام المصطلح عليها مقادير لحروفها و (كمها) مماثلاً لبنيان الشيء ذاته واصبح التقدير (prevoir) وتبديل القدر (Le Destin) بالاستناد إلى منظومة اعداد الكلمة ، هدفا اساسيا لهذه العلوم .

ولم يكن انحراف هذه العقلية في حدسها في العدد (بنيان الكون الرياضي) ولا في القدر (تألف هذا البنيان من منظومات عددية معينة بل هو في التباس القيم الانسانية بالعلم الخارجي التباسا حذر منه ممثلو هذه الثقافة وأشار إليه المسيح بجوابه على طالب وجه اليه في تحويل الحجر خبزاً . ان عالم الاقدار يخضع لناموس الاب (الإله) وملكوت ابن الإنسان في اتجاه المعنى . وقد ميز المسيح بهذه الاشارة عالم الروح من عالم المادة ' وخضوع هذه الاخيرة لقوانين مستقرة . وبين أن التأثير فيه

لن يتأتى إلا بواسطة الآلة التي انشئت موادها منه وانها لمنظرة تنسجم فيها الثقافة السامية مع المدنية الحديثة رغم تباين اتجاهيهما .

وما هو الاسم في هذه الثقافة ؟ إنه سمة الكائن التي اختيرت في الملأ الأعلى : « الاسماء تنزل من السماء » . النفس تنشىء صورتها من تجلياتها تحقيقاً لهذه السمة ، متخذة مداد بدنها قاعدة عليها ترتقي ومن تفرعاته المتدفقة تنسج منظومتها المتجلية بالأصوات والألوان المصطفاة من بين تجلياتها الحسية .

ولئن كان المداد يضيق عن المعنى فقد جهزت النفس بدماغ هو دنيا طوع مشيئتها لتبعث فيه ، من الخيال ، ما يحقق صورتها متسامية بهذا التحقق نحو سمتها :

هذه الصورة تفترق فيها المعرفة عن بنيان بدنها فينموان بهذا الافتراق في اتجاهين أبداً متوازيين إذ أن البدن ينتهي بالقواعد الحياتية غير المشعورة (القوانين الفيزيولوجية) والمعرفة به تسترسل أيضاً فيما يتعدى كل حد ممكن [l'infinitésimal] وهما وإن لم يتلاقيا في هذا الاتجاه منبعثان ، في الاتجاه الآخر ، من ذات السمة حيث البدن من (بدأ) هو ما تبدو به هذه السمة صورة في عالم المكان فأن الميول

المتبلورة بهذا البدن تعين اتجاهات هذه الصورة المستفبضة طبيعة في المكان ، فتبدو الاشياء (من شاء) المتآلفة في هذه الطبيعة غايات بها تتحقق تلك الميول.ولكن هيهات أن تستنفد معرفة هذه الغايات المتمثلة أيضاً ذهناً ، تلك الاشياء : فالخيالُ أبداً منفصل عن ماهيتها . وهما قد يتآحدان ولكن ليس في هذا الاتجاه .

ولئن تحولت الصورة الذهنية ، بالإرادة ، إلى عمل في البدن فتأثير الصورة لن يتعدى حدود البدن إذ أنهما منبثقان عن وحدة (ميتافيزيكية) .

وإذا بدا تأثير الإرادة متخطياً حدود البدن في نسيج القدر فان هذا التخطي لم يحصل الا واسطة الالة التي بنيت من عناصر القدر . كما سبق أن بدا تأثيرها في جهاز البدن المؤلف من منظومة أوائل ، هذا الجهاز الذي يبدر كل من أعضائه خلال المكان منظومة « أمدة » مكتسية بالتجليات الحسية مع أنه وحدة من حيث هو منبثق عن ذات السمة . مثله كمثل الأنشودة التي تتجلى في النفس إلهاماً وخيالاً ومداداً (منظومة أعداد اهتزازات ألحانها) . ولما كان مداد الاشياء يبدو منفصلاً عن صورها المتمثلة في الذهن فهي لن تخضع لصناعتنا كما تخضع الأعضاء لإرادتنا إلا بنسبة ما يقترب العلم من اكتشاف منظومة بنيانها العددي .

ولئن كانت معرفتنا تقف من الاشياء عند منظومتها العددية المتحلية بالتجليات الحسية فهي ترتقي بالرحمة [sympathie naturelle] الى الإلهام (وحدة انبثاق الكائنات الحية) فيبدو الإنسان ، حينئذ ، معرفة وعملاً أي وجهي وحدة مستنيرة بنور ذاتها وما الإرادة إلا "نية" تعبر فيها الغاية تعبيراً مبهماً غامضاً عن الاستعدادات الكامنة وبتحققها في هاتين الوجهتين تنمو الشخصية .

ولئن نزع الفكر (الأوروبي) الى الطبيعة (من طبع) وهي صورة المعنى المستفيضة وجوداً، وتدرج نحو بنيان هذا الخيال الرياضي فأدرك ، في هذا الاتجاه ، وحدة هذا الهيكل الحاصل من التباس السببية (التلازم) بظرفي الزمان والمكان ، واتخذ هذا الهيكل بذاته ولذاته فقد انحدر الى العينية (l'dentité) في المعرفة والى العطالة (ynertie) في الوجود فانتهى هذا الفكر بوحدة الكون غير المتناهية وحدة ذات كيان متناقض .

وهيهات أن يستقر الفكر على التناقض . ولن يتخلى طيف المعنى عن معاودته ولا عن دعوته الى التأمل بالكمال (La Perfectton) كفكرة وكصبوة الى تحقيقها : هذه الصبوة التي قد فتحت للذهن العربي . بعنفها

سابيل المعنى ، وأنارته . بفسحتهـا ، فأدرك الكمال ولكن في الاتجاه الاخر ، لأن تأثير المعرفة في الاشياء لم يتم إلا بصورة غير مباشرة إذ أن هذه الاشياء أيضاً لن تلزم صورها الذهنية عملاً إلا بعلاقتها مع الميول التي ينطوي عليها البدن . بينما المعرفة الرحمانية هي علم وعمـل وهي في حالتها ذات درجات متفاوتة .

ولقد أشار الذهن العربي في جمع السالم الى تفتح الشخص بالاجتماع. وما الشهرة (الإسم) إلا رمز قابلية صاحبهـا على إزالة الفواصل بين النفوس بحيث يشف الحجاب ، بتجاوبها في وحدة حال ، عن ينابيـع الحياة التي تتدفق فيغمر الجميع بهذه النشوة .

لا تبقى هذه المعرفة الرحمانيـة عند تفتح نفس صاحبها بتجاوب الاخرين فيها بل هي تنمو أبداً بالكشف عن قرارتها فتحقق ذاتهـا تحققاً يوجب الاختيار عند كل بداية : اختياراً يبدر في الوجود عملاً . واذا كان ما بدر عن الملأ الأعلى منظومة فالمعرفة فيها ، هي من العمل، كالحس من الجهاز العضوي المختص به .

فاذا كانت السببية قوام معرفتنا الكونية.فالرحمة هي مبدأ معرفتنا الحيانية وقوامها وكذلك الواجب مبدأ معرفتنا الإنسانية وقوامها واذا

ادرك الفكر الاوروبي الوجود خلال السببية يدا له الكون والحيـاة تاريخاً سرمدياً مع أن النظرة العربية Vision في الوجود انبثاقية وهي اقذ القت عليه طابعها الإنساني فبدا لها الكون والحياة مراحل (قبب) فان الاسم وهو شقيق كلمة سماء ، في عقائد الشعوب السامية ، هو السمة التي تحقق بها المعنى صورة في كل من هذه المراحل : خلق الله آدم على صورته ومثل عيسى كمثل آدم .

سمة تفتحت عن نظام القيم الانسانية المنسجمة مع طبيعة هـذه المرحلة ، فركت على شفقها ، هذه القيم في نفوس ابنائها .

ولئن تفتح هذا النظام كاملاً في النبوة فالبطل أيضاً بارادته يوقف سير القدر ويبعث بكافة هذه القيم في نفسه المتفتحة بهذا الاستجمام ، تدفع عنها بالطبيعة وما القت هذه عليها من آثار كما تدفع المنبرة ، عند تقلصها الابر فتنفر هذه منها متطايرة فترتقي هذه النفس من شخص الى ذات متمتعة بالخلود وتبقى ذكراها منارة تهتدي على شفقها الأجيال : (المصلحون) يدعون اولاد الله ، كل منكم يستطيع أن يكون مماثلاً لابن الانسان (المسيح) .

ملحق :

« نحن من قوم قد شقوا طريقهم من الظلمة إلى النور » _ غوته _

إن ماورد في هـذا البحث يلقي ضوءاً على الأسبقية زمنـاً بين الظلمة والنور ، إذ أن الاختلاف على هـذه الاسبقية قـد حصل من التباس الواقع بالحقيقة التباساً ينقشع باعتبار أن الواقع للكائن نسبي والظلمة أيضاً اليه نسبية [رغم أن الحياة تبدو في الرحم مكتنفة بالظلمة وفيما بعد تنتقل من الغموض والإبهام إلى التفتح والوضوح] إذ أن نشأة الكائن تجلٍ من معنى ، وهي نزاعة على مسئوليتهـا ، الى تحقيق كافة تجلياته .

ولئن بدت هذه الغاية محققة عند استكمال شروط حيـاة الكائن بكاملها فهي كامنة في البداية ولا تزال مبعث فعاليته وعلى نورها تتوضح توجهاته توضحاً تشف به هذه الكلمة وتنقشع مطلقاً في البصيرة .

ملاحظة : ١ —

مفهوم الزمن : لقد وقف الذهن العربي في تصنيف الفعـل ، من حيث علاقته بالزمن ، عنـد الماضي والمضارع فأشار ، بحسب إعرابهما بالأول الى اندراج الفعالية في المكان فركونها ، وبالثاني الى مواصلتها : فكأني بهذا الذهن ، بإعراضه عن الفعالية ، تبنى وتستكين وبإقبـاله عليها تُبعث من عالم الإمكان . وإن اختياره إعراباً مشتركاً لصيغتي الماضي والمفعول من جهة ، وصيغتي المضارع والفـاعل من جهة أخرى ،

ليكشف بوضوح أكثر عن هذه النظرة المثالية الخاصة مع أن ذهنيـة الأمم الأوربية تتلقى الزمن ملتبساً بالمـكان ، وهو قائم بذاته تندرج فيه الفعالية سرمدياً ، وان التقسيمات التي أدخلها فيه بين ماضٍ بسيط ، وماضٍ مركب وماضٍ في المستقبل ، تعـبر عن نزعته الى المادية التاريخية في الوجود .

ملاحظة : ٢ –

يتنوع الفعل في الذهن العربي ، خصوصاً بالنسبة أولاً إلى الشروط التي تحيط بتحقيقه ، وثانياً إلى تجـارب بنيان حدسه : ففي الحالة الأولى ينقسم الفعل إلى ما هو مرفوع ومنصوب ومجزوم ، وأمر وتأكيد والتماس ومجهول. ولئن بدا في هذه الصيغ توافق دقيق بين المعنى والصورة الصوتية فإن هذا البيان ليستدعي الانتباه خصوصاً في صيغـة المجهول حيث أن حركة الفاعل ـ وهي الضم ـ تُنقـل الى الحرف الأول (المشابهة مع التصغير) في حالتي الماضي والمضارع ، ويُكسر ثاني حرف في الماضي بياناً لنسبة الفعل إلى فاعله ، أي أن الفاعل قد تحمل الفعـل . وأما في المضارع ـــ ذو الفعالية التي لمْ تفقد بعد ـــ فيحرَّك ثاني حرف منه على الفتح : قُتـِل يُقتـَل ، ضُرِب يُضرَب . . .

وفي الحالة الثانية يبدو طابع الذهن العربي (الحدس) متفرعاً في غاية الدقة حيث أن الصيغ فتح ضم (قتَل: يقتُل) فتح كسر (ضرب يضرِبُ) فتح فتح (سأل: يسألُ)، ضمّ ضمّ (كرُم: يكرُم) كسر فتح (فرِح: يفرَحُ)، كسر كسر (حسِب: يحسِبُ) كل منها بحسب بيان حركة ثاني حرف منها تعبر عن تجاوب الفعالية مع الفاعل، والغاية التي تستهدَف ... مع تغلب إحدى الاتجاهات.

وكذلك تعبر الأوزان التالية عن نفس البيان: فعّل (قطّع، طوّف) فاعل (قابَل، سافَر) أفعَل (أدخَل، أورق) تفعّل (تفرّق، تقطّع) إفتعَل (إفترق، إضطرب) ...

ويبدو هذا البنيان (الحدس) أكثر وضوحاً في علاقة الفعل بالضمير وعلى الخصوص، تكشف هذه العلاقة، حسب موقع عناصرها في وحدة عبارتها، عن الأهمية النسبية لهذه العناصر المتجاوبة إذ أن الضمير يكتنف الفعل المضارع بالسوابق واللواحق (Préfixe et suffixe) فهو يقتصر في الماضي على اللواحق فقط وبهذه المشابهة مع الاسم تبرز صفتها المشتركة فانحدار هذه الصيغة نحو الاستكانة.

ويؤكد الاختلاف في الإعراب أيضاً الفرق في الاهمية بينهما

أهمية تكاد تتلاشي في الغائب الماضي : ضرب : يضربُ ، ضربوا : يضربون . . .

تهدينا هذه العناية بالمضارع (على خلاف الماضي) إلى نزعة الذهنية العربية إلى التقدّمية ونفرتها من الرّجعية متممة نزعتها الأساسية الى الأصالة فيتوضح بذلك طابع اللسان العربي "الحيوي".

لقد أشارت الحياة ببدنها ، رمز ميولها المتبلورة الى الأصالة كمبدأ انبثاق لمظاهرها تنمو فيه اتجاهاتها وإن كل ترقيع يعتريها لينبيء عن ضمور أصاب صاحبه، وهي بنسبة ما تتملك بالظروف المحيطة بها وتخضع القدر لمشيئتها ، تثبّت تقدمها .

ولمّا كان طابع المدنية الحديثة طابعاً علمياً صناعياً تضاف فيه كل حقيقةمكتسبة الى ما قبلها ، فقد سطا النهج التقدمي على كافةمؤسساتها ولكن على حساب الأصالة فيها فأخذت هذه المؤسسات تستحيل الى أدوات مصطنعة بحيث تغلبت الوسائل على غايتها .

ملاحظة : ٣

ولئن كان الإسم العام (en Majuscule) في عقائد الشعوب السامية هو الصورة التي تتضمن الطبيعة (المحسوسات والمدركات من وجهةنظر

الإنسان) فالحياة الانسانية بتساميها نحو المعنى ، ولقد أشارت الى ذلك أسطورة آدم بأنه صُنع على صورة الإله) فالإسم الخاص (en Minuscule) ترمز الى معادل الصورة الخصوصية الصوتي ، رمزاً عينته الحياة نفسها في الأمة البدائية واصطلح عليه عرفاً في الامة المشتقة .

وإنّ الصورة المتضمنة ، بحسب حدسها (الشكل والصيرورة) تشير الى حدوث وجهتي الوجود : الطبيعة والتاريخ تحقيقاً للمعنى اذ أن الطبيعة تعكس (Projéte) الحالات المستفيضة (أي الماضي ملتبساً بالاسم في الذكرى ، والأمل ملتبساً بخياله في النزعة) . وما التاريخ الا محاولة عوّضت الحياة بها عن ضيق المكان عن المعنى في نسبة الاسماء المجرده نسبة متفوقة على ما تشخّص منها .

ولئن بدأت الجملة بالفعل وكان الفعل مبعث اشتقاق الاسماء حيث يبدأ الواقع (من وَقَع وهو يرمز الى الهبوط) مع الفعالية ، فالاختلاف بين الاسم والفعل في اللسان العربي انما هو اختلاف نسبي فيتبع تحوّلهما بعضها تبديل الحركات في بنيانهما . واذا كانت «الشدّة» علامة الأفعال الثنائية الأصلية بياناً عن التواصل في الفعالية (ورمزاً الى سير القدر) فإن الإسم يتميز أيضاً «بالتنوين» كأني بالذهن العربي يشير به الى الرنة

التي تحدث عند انبثاقه خلال نسيج القدر . وان الاستحالة لم تقف عند الإسم والفعل بل تشمل كافة أنواع الكلام. وما قيل عن تقسيم الاسماء الى جامد ومشتق انما هو جهل بطبيعة اللسان العربي اذ أن اسم «رجل» مشتق من فعل « رَجّ » ومن هذا الإسم يحصل ارتجل » . وكذلك اسم « عَين » مشتق من « عان » واسم « فرس » من « فرّ » و «قطة» من « قطّ » و « بطّة » من « بطّ » . والاختلاف فيها إنما أتى عن اختلاف النظر اليها .

وإنّ صيغ الاشتقاق وعدد مشتقاتها لتكشف عن علاقة المعنى بالصورة وعن مدى تحقيق إمكانيات الأمة في مراحل تاريخها :

(١) « فَعْل » : تعبر عن استهداف الفعالية غايتها بجزم المقطع الأول : فهمَ : « فَهم » ؛ قتَلَ : « قتْل » .

(٢) « فِعل » : تعبر عن نسبة الفعالية الى فاعلها . « حِفظ » ؛ « عِلْم » .

(٣) « فعول » : تعبر عن استمرار الفعالية مستقلاً عن غايتها : « قُعود » ، « جُلوس » .

(٤) «فُعولة» : تعبر عن تغلب اتجاه الحالة: «خشونة»؛ «سهولة».

(٥) « فَعلان » : تعبر عن تقطع الفعالية : « يرَقان » ؛

« خفقان » .

(٦) « فَعيل » : تعبر عن استمرا الفعالية : « رديب » ، « رحيل ».

(٧) « فِعال » : تعبر عن رسوخ الحالة أو الفعالية : « كذّاب » « كِبار » .

(٨) « فِعال » : تعبر عن الإبتعاد : « فِرار » ، « جِماح » ، « نِفار ».

(٩) « فِعيّلي » : تعبر عن التكرار والشدة : « حِثيثي » ؛ « خطيبي » .

ويستدق البيان حتى أن الفعل ذا المعاني المختلفة يكون له مصادر عديدة التعبير عن هذه المعاني : وَجدَ ، « وَجده » ، « وجدان » . رَفَعَ : « رفعة » ، « رُففاعة » ...

ملاحظة : ٤ –

إن تصنيف الموجودات بين مذكر ومؤنث يعود الى مبدأ الفعالية الذي يعود اليه تقسيم الأفعال الى ماضٍ ومضارع والأسماء الى فاعل ومفعول فيتوضح بهذا التصنيف أيضاً شأن الفعالية في الذهن العربي وشمولها على قواعد لسانه . ولم تكن علامة التأنيث ة) وهي تلفظ بين (ه) و (ت) في حالتي المفرد والجمع الا تطوراً للفتح عبارة

الركون الحاصل من تحديد الفعالية في المكان اذ يبدو هذا الركون خاصة في اسم الوحدة الحاصلة من تحديد الجنس: بقر « بقرة »، سمك «سمكة»، بطّ « بطّة » وفي اسم المرّة : « نُصره » « قشعريرة »، « ترويحة »، وفي اسم الكيفية : « شاعريّة »، « ذهنيّة »، « عبقريّة » وفي اسم الجزء : « خِرْقة »، « قِطفة ».

ومّما يؤيد ذلك تحول الأسماء من مؤنث الى مذكر : « دفلىً » « بهمىً »، « زفرىً »، (بتنوينها). وينسجم مع هذه النظرة اعتبار الجموع مؤنثةً اذ أنها مفاهيم ذهنية حاصلة من تحديد المكان أيضاً : « إبل »، « غنم »، دود » . . . حتى أعضاء البدن المزدوجة فانها مؤنثة غالباً، « رِجْل »، « يد »، « كتف »، « عين »، « أذن » . . . مع أن المفرد منها مذكر، « أنف »، « رأس »، « وجه » . . . وأسماء الجمع الخاصة بالعاقل، مع أنها عديمة الفردية، تذكر أيضاً، « قوم »، « رهط، « ركب » . . .

ربما كان الطابع الاجتماعي قد ساعد على بروز صفة التأنيث وميزها عن نزعة الاشياء العامة الى الركون حيث أن (ة) تبدي تطوراً دقيقاً في الاتجاه، (ى)، (ا)، (ء) في الصفات الابرز معنى من الأتجاه الانساني، الاكبر، « الكبرى »، الاعظم

« العظمى » (كبرى المدن) ، غضبان « غضبى » ، شبعان « شبعى » ، ظمآن « ظمأى » .

ثم الصفات التي تنزع الى الاطلاق فانها تبقى على المذكر الا اذا تحددت ب (ة) فتتأنث ، رجل صبور « امرأة صبور » ، رجل كذوب « امرأة كذوب » ، « رأيت صبورة » وكذلك تقول ، « عين كحيل » ، « فتاة قتيل » ، « امرأة جريح » ، « ناقة مذعان ، « جارية معطار » ، « رأيت معطارة » .

والصفات الثابتة والملازمة المؤنث الحقيقي تكتسب بتحديدها علامة التأنيث ، « امرأة حامل » وهي « حاملة » هذه السنَة ، « امرأة طالق » وهي « طالقة » غداً . ويؤيد هذه النظرة تقسيم المؤنث الى حقيقي ومجازي فيكون هذا الاخير خاضعاً لقواعد النحو المتعلقة بالاشياء ،بينما يتبع المؤنث المعنوي قواعد خاصة بالعاقل .

الفَصلُ السَّادِسُ

حول العبقرية والابداع

الانسان والفكرة المنبثقة عنه كلاهما متماثلان تكويناً اذ أن الفكرة ايضاً تبدو مصمماً منطوياً على استعدادات خاصة ومبادىء عامة وإذا حصل بهذه الاستعدادات، اصطفاء الصور والخيالات المحققة لها، فانما يتم بتلك المبادىء توجيهها فتتعين بذلك حينئذ حدود سيماها: مثل الانسان في ذلك كمثل الطائر ينبت ريشه بالهمة التي انعقدت عليها حياته وبهذا الريش أيضاً يتحدد مدى الافاق التي يرتقيها، فتبدو له الطبيعة عندئذ مختلفة متنوعة. وكذلك الانسان اذ ما حملت نفسه الاصيلة ميولاً كريمة نهضت بها هذه نهضة متناسبة بالفسحة، مع عمقها، فأدرك الكون والوجود حينئذ من آفاق متفاوتة وأن تكن الحياة شقاوة فهي تأتي، في كل درجة ترتقيها، بالغبطة التي تنبىء عن غايتها. ولئن انبثقت الفكرة عنها تعبيراً عن ذاتها فيها يتحدد سلوكها وهي بذلك تتحقق.

فالحياة اذن تنشيء بنيانها (جوها الانساني) وبدنها بحسب غايتها في الوجود .

* * *

ليست الحيـاة رسماً (photographie) ولكنها فن (Art) واذا كانت تبدو ، في أشكالها الاولية ملتصقةً بها خاضعة لنفوذها ، فهي لن تتلاشى فيها وسرعان ماتتحرر منها فتبدر حينئذ معنىً بديئاً موجهاً للقدر ملقياً عليها بشمول متناسب مع عمق مصممه .

لقد رمزت الحياة بعدّانها (مرحلة الكائن بين تكوينه وشيخوخته) الى مدى توجيهها للقدر اذ أنها استجمت ، في وحدة هـذا العدّان ، مكانها (مدى تفتح تجلياتها) مع زمانها (تفاعل التجليات وانسجامها) فعينت بفسحته مرتبة نوعها في السلسلة الحيوانية فبينما يتساوى العمـل (L'action) في المادة (La matiére) مع ردّته (réaction) وتبـدر الحوادث حاصــلة عن تفاعلها يجيب الكائن الحي بحسب طبيعته على المؤثرات بجواب متناسب المدى مع امرتبته في هذه السلسلة .

* * *

لقد أشار الذهن العربي بكلمتي « العقيدة » و « عَقـَدَ » (الجنين أو الزهر مثلاً) المشتقتين من ذات المصدر الى الناسبة بين الحيـاه

والمعرفة التي تتجلى بها لذاتها . وان هذه الاشارة لتهدينـا ، بالاطلاع على كنه المعرفة ودرجاتها ، الى نشأه الانواع الحيوانية ومراتبها : فاذا كانت الحياه تجيب بتجلياتها الحسية على المنظومات الاهتزازية الواردة اليهـا من الخارج ، فانها ، بالاستناد الى هـذه المدركات الحسية ترتقي بمعرفة الكائنات الحية الى تفتحها رحمانيـاً وقد تتسامى الى البصائر في بنيانها الانساني اذا ما بعثت في ذاتها تجليات هذا البنيان المتبلور رموزاً في بيئتها . وان كل درجة من هذه المعرفة عنـد استكمالها الشروط المحققة لها ، تبدر عملاً متناسب المدى ،فسحةً ،مع عمقها في صميم الوجود.

كذلك الكائنات الحية فهي وان اتجهت بحواسها نحو العالم الخارجي تبقى متصلة من الصميم ايضاً بالوجود وهي منه كالطفل من امه : اذا ما تحدد تفتح مشاعرهما بمدى تجاوبهما الرحماني فان درجة هـذا التفتح تعين عدانهما النوعي .

واذا تحدد عدانها (الكائنات الحية) بعمق اتصالها بصميم الوجود فان وجهة نظرها فيه تعين علاقتها بمظاهره التي يتم بها تحقيق (réalisation) هذا الاتصال : علاقة ينسجم فيها بنيان الكائن وما انطوى عليه هـذا البنيان من الغرائز مع الاشياء التي تؤلف هذه المظاهر . وما الانطباق (adaptation) الا رسوخ التجاوب بين بنية الكائن وبيئته : انطباق يبدو

اتجاهه عنايةً (من عنى) نحو الاشياء (من شاء) كما يبـدو الانسجام متوضحاً بتجاوب الحدس مـع الصور المحققة له . فاذا تبدلت البيئـة تدريجاً او بانقلاب مفاجيء ، ضمر او تلاشى النوع الحيواني ذو البنيان المفطور عليها . ومـا تحرر إلا الانسان (وهو على صورة الاله) من قيد هذه العلاقة حيث أن عمق اتصاله حمله على تخطي حدود القدر على مثال الحياة ذاتها (بخلق عدّاتها على درجاته المتفاوتة) فأنشأ في هـذا القدر البيئة التي يزهو بها ابداً .

* * *

ولئن بدا النوع ، في الطبيعة ، ذا صفـات متلازمة ومتممة ، فإنه ينبثق عن الملأ الأعلى وحدة حية تتجاوب فيها الغاية مـع البداية تجاوب الالحان التي بها يتحقق إلهام الانشودة ، فيتجلى ، في هذه الوحدة ، الاتصـال بين الضمير (inconscience) والوجـدان (Conscience) ، وتتوضح الميول التي تبدر قبـل أن تدعو الحاجة الى استعمالها ، إذ أن الحياة تنشيء الاعضاء كما تختزن الذكريات والعادات بغيـة استخدامها في المستقبل تحقيقاً لأهدافها لقد ارتسمت في بنية الانسان مقدراته فينبيء قوامه المنتصب ذو التوازن المتخلف بصعوبة عن كافة الانواع ، وبنيانهُ المتلازم النمو مـع جنسه ، وبدنه المتحرر من اوائل طبيعية

مؤثرة . . . ينبيء كل ذلك عن مستقبل سيتصرف فيه الانسان بالقدر فيصنع منه اوائل على تقدم دائم، وسينشيء كياناً اجتماعياً نامياً بالتعاون في اتجاهي الشمول والعمق يحفظ فيه تراث الاجداد بحيث يستأنف الاحفاد تشييد بنيانهم .

لقد نزعت الحياة في الانسان الى اتجاهات تبلورت في حدود المفهومات أو صور الاشياء . وبالتجربة والخيال يكشف عن هذه الاتجاهات : فاذا دلت اللذة على صلاح التجربة ، فان الفرح ينبيء أيضاً بصدق الخيال .

تحمل الحياة ضوءها في ذاتها وعلى شفقه تصطفي خبراتها اصطفاء من التجارب المحفوظة في ماضيها ومن المؤثرات الملحة عليها من حاضرها لكي تبدع به الخيال الذي تجيب به النفس إما على مشكلة عملية أو تحقيقاً لبنيانها المتسامي . وهي ان كانت تكشف بانتباهاتها المتسلسلة والمنسجمة بنيانها الفني (المنظومات الروحانية التي انطوت عليها والصور التي بها تتحقق هذه المنظومات) فانما : بالتأمل فيها يتحرر المعنى من الطبيعة تحرر النتف من القوقعة ، وحينئذ تستضيء بنور ذاتها ، وبهذه الاضاءة تتضح اللاشعور (الضمير) ويصبح شعوراً ، وعلى

شفقه تعيد النظر في الوجود، وعلى مسؤوليتها تشترك في تعيين قيم الاشياء.

* * *

ليس ثمة انفصام بين النزوة (spontané) والارادة (Volonté) فما تبني الحياة بالارادة مكمل لما انشأت نزواً وهي تنمو في الحالتين بنفس الاتجاه أي أنها تعبر عن المادة الملتبسة بها باستجمام الكثرة في الوحدة فتتحرر بهذه الرفعة منها. وهي تظهر غناها بنسبة تحررها بحيث تتشعب ميولها وتتسع دائرة انتباهها فتلتزم، عندئذ، المسئولية الناتجة عن الاختيار في الصور المتفرعة والمختلفة فسحة.

وإذا كانت بداهة هذه النزعة الفنية تظهر في المنظومات العليا الفلسفية والدينية فهي مرتسمة في الحس نفسه إذ تجيب به النفس من وجهة نظرها الخاصة، على نزعة كافة تجليات الوجود الى التحقق جواباً ينطوي على تجاوب الذاتي (subjectif) مع النامي (objectif) انطواء الانشودة المتجلية إلهاماً وألحاناً على منظومة اهتزازتها (وهي هيكلها الملق على المكان).

والانامي ان بدا بدورته قدراً متواصلاً فالاحساسات التي تجيب بها النفس عليه كيفية (qualité) مختلفة بالدرجات: كاني بالحياة بقعة مضيئة

(tache lumineuse) تلقي باشعتها حيث تتوجه فتفتح تموجاً على قدر متواصل الحلقات . ولئن بدت كل من هذه الموجات نبضاً (pulsation) في الاجهزة الحسية فهي حس به تتحدد صورة النفس في عالم الشهود وما المادة التي ينطوي اسمها على حدس المدة (Durée) والامتداد (étendue) الا الغاية التي تلتقي فيها الحياة بالكون . فاذا اجملت النفس هذه النزعة بمفهوم المادة تحقيقاً لبنيانها الفني فهي تجيب بالفرضيات التي تجمل بها المنظومات الصغرى (بالالكترونات) والمنظومات العظمى (بالافلاك) والفواصل التي بين الاشياء (بالاثير) ، على نفس الحاجة الفنية الاصلية فيها بحيث تستغني عن ظرفي الزمان والمكان

* * *

اذ كان الحيوان قد تباين (fait Contraste) عن بيئته بصورة متناسبة مع مدى عدانه ، فبفسحة خياله ايضاً تتمايز افراغه وبها تتحقق ، خاصة مراتب الناس . ولئن كان العدان وحدة نمت فيه الحياة بتوقيف القدر والخيال الذي انشيء من لمحات مقتبسة عن القدر الخارجي حساً ومن القدر النفسي الذي طوع ارادتها « الدماغ » ذكرى فبهذا الخيال قد تتجلى الحياة ازاتها متسامية بتكيفه .

الم تشر الصورة (inage) نفسها ، بتشعب حدسها الى الصيرورة

[devenir] والشكل (forme) معاً فهي وان اقتبست عناصرها عن القدر ولازمته الى حد بهذا الاقتباس ، الا أن المعنى هو قوام تآلف عناصرها وهو يبدو متفوقاً بنسبة تنوع الذكريات والاحساسات التي يتحقق بها اي النقاط التي يمس بها القدر وعلى درجات متفاوتة تفاوتاً تبدو به هذه الصيرورة طبيعة ذات أبعاد (en relief) وان كلمة « شيء » وهي مشتقة من (شاء) لتكشف نشأتها عن علاقة الميل بغايته ، والمعنى بصورته ، فتحدّدهما متلازمين وأنى للكون ان يستوعب المعنى بل أني للسطح ان يستوعب الجسم ذا الابعاد الثلاث ؟ . .

ولئن ضاق الكون عن المعنى فقد انشأت الحياة (عِدّانها) قدراً طوع ارادتها ، فعوضت عما عجزت الطبيعة عنه بالخيال (وبه تبعث القدرة المختزنة في الدماغ) الذي تشيد به عالمها ، معتلية عليه نحو غايتها : المعنى .

واذا كانت الاشياء صوراً قد ارتسمت حدودها متلازمةً مع ميول الحياة : فالصناعة ، وان هي اقتربت بالعلم من ماهية هذه الاشياء فهي سرعان ماتلقي عليها سمة عبقريتها ، بتوجيهها اياها حسب مشيئتها فتحولها بهذا التوجيه الى دنيا متممة لبدنها (من حيث الطابع والخضوع). فهي (اي الحياة) تشيد على هذه المدنية بنيانها الثقافي ولما كان العمل

اساسياً ، فالفكرة التي تحملها تظل مسايرة لماهية الاشيـاء مسايرة قد انتهت بظهور العـلوم الطبيعية ذات "طابـع العلمي (thechniqne) الأنامي (objectif) .

وائن تحددت هذه المعرفة الأنامية العملية بمساومة (compromis) بين الغاية والوسيلة ، فهي بالعادة (habitude) ترسخ بالدماغ، وبصورة مصطنعة (artificiel) تستمد نسغ الحياة .

مع ان الخيال في المعرفة الفنية يبدع اشكالاً فيحقق بهذا الابداع مصمم الحياة ، ويحرر القوى الكامنة فيها بتوسيع دائرة انتباهها. والحياة تتجلى حينئذ لذاتها عقلاً وذكاء ، فان شف عليها بالعقل (من عقل: رَبطَ) نظام القدر وعلاقة الكائنات العامة فهي بالذكاء تضيء بنيانها إضاءة على شفقها تتفتح كوامن النفس ، فتتأرجج عبقريتها .

* * *

لئن انطوى البدن على هيكل عظمي فان للنفس ايضاً مصمماً تصطفي به تجلياتها (الاحساسات والصور والافكار على اختـلاف درجاتها) على شفق الخيال الذي ابدع من هـذه التجليات تحقيقاً له . واذا كانت النبـاهة (l'attention spontanée) نبـِهَ من نَبَّ : اعتلى وارتفع) تكشف عن اتجاه المصمم، فان الانتباه (l'attention volontaire)

يعين حدود الاصطفاء ، وبالتجاوب بين النزوي والارادي تتفتح الحياة باستحالة الضمير الى وجدان (ce qui est inconscient devient conscient) وهذا التواصل في الحياة النفسانية يبرز في انشاء المفهوم (le concept) والآية (l'idée) ، وفي تجاوب الغرائز التي انطوى عليها البدن مع القيم الانسانية الملتبسة بها . والمفهوم (le codcept) وان تحدد بغايته العملية واستقل عن النباهة بالمادة (قوامه) . فانما يحصل تكوينه (formation) ويتم تحققه (confromtation) عند الحاجة بالانتباه الى الحالات التي يرمز اليها . وما كان العلم والصناعة الا بغاية الاحكام في هذا التحقيق وذلك التكوين .

وان هذا التجاوب بين الارادة والآية (idée) يبدو بوضوح في تحقيق هذه الاخيرة ، إذ أن الارادة تذكي الصورة (أشعة إحدى التجليات التي تتحقق بها الفكرة) ، باختيارها اياها ، وهي (اي الارادة) إن أعرضت عنها انزاحت عن الوجدان وضمرت فيه . بينما تُحدد هذا الاختيار في المفهوم غاية خارجية فيحصل، بالتجاوب بين الارادة والآية، تحقيق هذه الاخيرة . وإذا ماثلت الذكريات التي تشترك في تكوين المفهوم التغذي من الذخيرة المختزنة في البدن تحوّل هذا الغذاء المصطنع في تحقيق الآية (idée) إلى كل ما في الحقيقة من حدة (ardeur)

وطراوة (fraicheur) ، بحيث تصبح الذكريات أشعة حاملة نورها ، وفرحها ، وحريتها . وفي تحقيقها وتجاذبها مع الارادة تتحول هذه الاشعة الى كوكب ساطع ، يلقي بشفقه على سبل الاصطفاء ، وينير التجليات المقبلة ، إذ ليس من العبث أن قيل أن النفس لا تحجم عن الخير عارفة ، أو بشكل آخر : انها لا تقدم على الشر بمحض ارادتها . فالاية (idée) المتحققة هي تحرير قوى النفس الكامنة ونموها نمواً منعشاً لهـا ، كأني بالنفس ، بعد ان تمس المحسوس مساً تستغني عنه في ارتقائها إذا ما أجملت درجات الصعود برموز مستوفية شروطها الاجمالية الفنية، فتبدو حينئذ الصورة وسيلة لإستخلاص المعنى المنطوية عليه .

* * *

يظهر على الخصوص تماس الحياة آنياً ، في علاقتهـا بالغذاء الذي تنشىء به بدنها رمز مصممها المتحقق بحسب مقتضيات العالم الخارجي إذ يتحول هذا الغذاء الى قدرة متبدلة أبداً ، بينما يواصل المصمم تفتحه في ذات الاتجاه تفتحاً يبدو في النفس ميلاً معبراً من وجهة نظرها عن التعادل الكيماوي بين ما استهلك البدن وما يحتـاج اليه . ولئن تكيف هذا الميـل بطبيعة الحاجات المتفرعة الى رغبات متنوعة فلقد بدر في

الانسان متجهاً نحو قيم بديعية ـ اخلاقية متباينة أكثر فأكثر عن هذا التعادل الكيموي .

فان تحلل شفق هذه القيم الأشياء (غاية الاحتياج) منذ الطفولة فهو يشتد بنسبة مايقترب الفرد في نموه من الشيخوخة فيقبل على حياة اجتماعية حتى يتفجر الوجدان عن هذه القيم للبصيرة نجوماً ساطعات سطوعاً متفاوتاً قد تشير به المعرفة الى الاختلاف في مراتب الانواع الحيوانية . ولما كانت مظاهر الحيـاة تتجاوب في وحدة الوجدان فاللمعة (Lueur) المنبثقة عن هذه القيم قد تطمس على الأشياء فوائدها وتحـل بالاتزان بين الطبيعة والانسانية . والمجتمع الأقرب من كماله هو الذي تنسجم فيه كافة القيم فتعبر النفوس عنها بما يقابلها من هيجان كأني بالحياة فنان يحقق ذاته بالانشودة التي تتألف انغامها من مظاهره المرتسمة على الكون ، انشودة تعبر الكون بهجته وتضيء مفاصلة فتبعث بالطبيعة وحدة حية . واذا ما أخطأ تجاوب هذا الانقسام وضمر الوجدان تفككت هذه الوحدة وتقلصت الاشياء حتى الى التنـاثر في الجزئيات فبدت حينئذ النظرة المادية والانانية في الانسان .

* * *

ان الحياة تملي على الانسان القيم ، فالعقيدة أو اختيارها من بين

العقائد كلاهما يدل على هوية عبقريتها وهذه كميدان مغناطيسي يُكْشَفُ عن بنيانها بالتجربة ، ويُعْزَى الى مصممها بانسجام هذه التجارب ، فهي تتجلى لذاتها ايضاً بالبصيرة وإذا عبرت الحياة بالحس عما تستقطب من العالم الخارجي أو حصلت ، بتجليها الحسي ، على نظرة رحمانية (vision sympathique) في بنيان هذا العالم فانها تجيب ايضاً على وضعها الاجتماعي بالعقيدة التي يتفتح عنها هذا المجتمع قيماً (معرفة وعمل) في الوجدان فلئن انطوى الحس على نظام رياضي منطقي بعمقه (كثرة الاهتزازات في وحدة ادراك) تُحَدِّدُ حالته وفي سلسلته يُعَيِّنُ موقعه) فان العقائد تتضمن ايضاً نظاماً قيمياً (العدل) متلازما بعضه ببعض ، ومتتاماً .

واذا كان قوام كل من هذه القيم يبدو معيناً بالنسبة لمركزها في هذا النظام وصيرتها نحو غايتها ، فلقد اختار الذهن العربي كلمة « عدل » الحاصلة من « عدّ » والمنطوية ، بحسب حدسها ، على اتجاهي العدالة : تمسّ به المساواه ، وآخر تسمو فيه الى نظام رتيب (hiérarchique) .

وإذا استعانت الحياة بالنظام الرياضي (الاهتزازات) على ادراك الحس . وبمنظومة البدن على الاتصال بحياة الكائن الحي اتصالاً رحمانياً ، فانها تستعين ايضاً بالمؤسسات الاجتماعية الملقاة على المكان

رموزاً لتبعث بنيانه وحدة حية : وحده حاول رجال اللاهوت عبثاً الوصول اليهـا بالبنيان الذهني (a pastériori) وكل درجة تعتليها النفس يبدو فيها التباين (Dialectique) الذي أدّى اليهـا متلاشياً في وحدتها .

ولئن أخطأ رجال اللاهوت الهـدف ، فان المدرسة الأجتماعية الافرنسية (دور كهايم) قد انتهت أيضاً الى المأزق نفسه فقـد تلقت البنيان الاجتماعي وحدة حية قائمة بذاتها حاصلة من علاقة أفرادها حصول الحياة من التركيب الكيماوي على درجات متصاعدة . مـع ان الحياة تتحدى مبدأ التلازم (Causalité) بنشأتها عن الملأ الاعلى بحيث تبدر كافـة التجليات منسجمة (Pharmonieuse) وفعـالة (Dynamique) .

وما الفن الا بيان هذا الانسجام .

* * *

تنشيء الأمة جوها الثقافي منسجماً مـع ما انطوت عليـه ابدان ابنائها من ميول ومكملاً لها . ومادامت هذه الميول تتجاوب مع جوّها هـذا تجاوباً ملائماً فالحيـاة تزدهر في الأفراد وتزهو وتغمر الناس كافة بنشوتها .

في هذا المجتمع تتفتح مشاعر الرحمة ويتعاون ابنـاؤه على تذليل

الصعوبات فتسود المبادىء النبيلة اعمالهم وان ذكرى هذا العهد الذهبي الذي أنشىء نزوة لتبقى متلألئة في تاريخ هذه الأمة ، هذا العهد الذي اطلق عليه العرب اسم « الجاهــلي » اعتزازاً به يوم كانوا يستوحون به اعمالهم من ألمبادىء التي فطرت عليها نفوسهم الكريمة وهم يجهـلون نتائجها احتقاراً لها : فالحيــاة تجهل الموت وهي لن تفكر بالنتائج الا عند تجوفها .

لم تكن الحياة في الانسان لتبقى عند حدّ النشوة بل هي تصبو الى التفرد بانشاء ذوات مستكملة شروط فطرتهــا فيتخطى الفرد وعلى مسؤوليته،هذه المرحلة : فاما ان يشق طريق العلى أو أن يضوي (se dégénère) .

بالتجربة البدئية يكتشف الفرد هويته وبتـأثير الصورة السحري ينشيء بنيانهوبالرحمة (sympathie) ينهض بها باخوانه فاذا صدق الحدس وبلغت العبارة غايتها تسامي الجميع نحو اهدافهم .

تبدو المظاهر الاجتماعية في وجدان الفرد كأنها تتعدّاه بانبثاقهــا وبصبوتها تعدياً تنال به قواماً ذاتياً (impersonnel) وهــالة قدسية : كأني بالناس ازهارٌ تفتح عنه مخطط الشجرة التي انبثقت عنها والانسان انما هو زهر وتنزع ابداً الى التفتح بالخيــال المتسامي الذي يتم بفسحته هذا التفتح : وان لكل حالة مشاعرها التي تدل على صحتها .

لقد أوضح الرأي العام العربي حدسه بمثال اذ قال : « ان العنب برؤية بعضه بعضاً يسود » وبالحقيقة فان التجاوب الرحماني بين أفراد المجتمع ينتهي بارتسام الملامح المعبرة عن الحالات النفسانية المشتركة سواء أكانت هذه مشعورة أم أنها ما زالت ضامرة . وتبدو هذه الحالات بصورة متفاوتة الدرجات في وجدان الافراد . ويضاف الى هذا التجاوب الرحماني المؤسسات ومظاهر الحياة الاجتماعية الخاصة فهي ، وان كانت رموزاً ، فانها تستقطب النزعات عند انبثاقها في النفس ، باتجاه انحناآتها فيحصل من التجاوب الرحماني والتفاعل الاجتماعي ما هو الضمير المشترك . (l'inconscient collectif) الضمير النزاع الى التحقق في الوجدان (Consciens) .

فمن سبق سواه الى حدس هذا الوضع المشترك ، وأحسن بيانه كشف ، بتأثير هذه الصورة البيانية ، الحجاب عما تتمخض عنه نفوس أبناء هذا المجتمع ، وحقق فيهم هذا الابداع . وبما يلقى ابداعه من صدى في هذه النفوس ، يتميز عن البدعة الحاصلة من شطط في الخيال .

وإذا اسود العنب برؤية بعضه بعضاً ، فلأنه قد نضج باقترابه من موسمه ، وما الزعيم للبدع الا الذي يبشر بالموسم فيولّد ببشارته هذه

النفوس ، مثله في ذاك كمثـل الشمس التي تشترك مع الأشجار في نضج ثمارهـا .

ان الذهن العربي قد عبر بكلمة فقه (وهي إحدى شقيقات فق ، فقأ ، فقح ، فقع ...) عن حدسه هذا ، إذ به تتفتح (تفقه) عن بنيانها الاجتماعي . والصورة التي يعبر بها الفقيه عما تفتحت نفسه عنه وتصبح قاعدة يسلك عليها أفراد المجتمع ، هي الشريعة (من شرع ،أي الطريقة).

* * *

أن أبدع أمة أو أخلق اشباحاً ؟!

أن أكون نبياً أو فناناً ؟!

على هذه المسألة يتوقف تعيين وجهة أحلامي !

ان الديانة والفن يتباينان تبـايناً يتواضحان به ، إذ تتجه النفس بالديانة نحو مصدر انبثاقها، وتفي بالفنّ زهو تجلياتها،وهي تتحقق كاملاً بتجاوب قطبـيـها هذين : الصورة والمعنى. ولئن كان الفن يزكو بالنسغ المنبثق عن ذاك المصدر ، فان الديانة تبهى بآياتها البيّـنات .

واذا ارتقت النفس باتجـاه الينبوع الى وحدانيّـة واجـدة (Panthéisme mystique) (من وَجـْد) فهي تنتهي في تحقيق تجلياتها

بوحدانيـة فنيـة (Panthéisme artistique) وفي كلتا الحالتين يتخطى الانسان حدود شخصيته .

ولئن كانت الحياة تنمو في الانسان بتجاوب تجلياتها مع الينبوع الذي صدرت عنه ، فقد انطوت نفسه على مثلها الأعلى وكانت فيـه الغاية متقدمة على الأسباب المحققة له بحيث تنبعث بها الفعالية وتتعين حدود الشخصيـة ، فتبقى النفس أبداً بين الحنين والصبوة : حنين الى الديانة وصبوة الى الفن ، فاذا ضلت عن هدفهـا تردت في الانجذاب أو الانانيـة .

والصورة وان كانت تعكس رواء المنظومة التي انسجمت فيهـا ، فهي تظل مع ذلك متمتعة بالحسن الخاص بوحدتها إذا مـا اجملت هذه شروط طبيعتها . بينما يصبح هذا الانسجام في منظومة القيم الاخلاقية رتيبا (hierarchique) حيث يزيل وضوح الغاية الفوارق تفتحت من درجات التباين التي انتهت اليها ، وكلما ارتقت النفس في هذا الاتجاه قابلياتهـا على ادراك بنيانها أعمق وأعمق ، تفتحاً يرتسم على سيماء صاحبها فيمنحها سمة ذات سحر رحماني ، حتى تصبح رسالته هذه في المجتمع كالرعد الذي يفجر بدويه ينابيع الارض فيجرف بفيضها الاقذار عن سطحها ، كذلك تظهر هذه الرسالة النفوس بفيضها من آثامها ، ففيها تنسجم أمانينا والبها

والیها نصبو كمثل أعلى ، وعلى شنقهما نهتدي الى سبلنا ، ونرمز الى هالتها القدسية بالالوهية كما نرمز الى من نحب بجملة عواطفنا .

* * *

يعمل الانسان ويفسر سلوكه، فيشترك بهذا التفسير في انشاء بنيته (Caractère) . فإذا كانت الحياة قد ألزمته العمل فقد أوجبت عليه النفس تبريره (justification) والإنسان الأقرب من كماله هو الذي تنسجم فلسفته مع أخلاقه وتضيئها .

ولئن تقدم انعقاد الزهرة على تفتحها ، فإن العقيدة تسبق أيضاً معرفتها وتتوضح بها ، مثل الإنسان كمثل غطاس ، يغوص في غور البحر لينشيء على سطحه ركيزة (tremplin) من اللؤلؤ الذي يستخرجه منه ، فهو يرتفع أعلى فأعلى كيما يغوص أعمق فأعمق ، وان خلاصه يتوقف على انسجام هذا البنيان ومدى ارتفاعه .

النفس تلتزم في تشييد هذا البنيان مبدأين : أحدهما سام منه تنحدر القيم الانسانية والآخر ارضي به تتحدد ، بحسب ضرورة عالم الإمكان ، قاعدة هذا الإنسجام ، القاعده التي تكاد فيها الحاجيات تلتبس بالقيم فتنتهي بحدود التوازن والنمو في البدن . فإذا ما تحررت القيم بتساميها نحو غايتها ، تجلى بها الوجود عندئذ خيراً وجمالاً ، فإن كان

العلم قد استهدف تعيين المناسبات الرياضية التي انطوى عليها هذا التجلي (المحسوس) في الاتجاه الافاقي ؛ فإن الأخلاق تصبو إلى الكشف عن العدل (نظام القيم) الذي تضمنته النفس .

لقد قدرت الحياة الحاجة بفائدتها، وحددت باللذة معيارها وعينت أيضاً «بالنشوة اتجاه خيراتها، نشوة تمس اللذة كما يمس نظام القيم الإنسانية الحاجات التي يفتقر اليها بنيان البدن ، وعن التباس نظامها تنتج الأنانية والزهد ، آفتاها ، إذ تستسلم النفس بالأولى للمادية فتقبح وتزهد بالثانية عنها فتضمر ، وفي كلتا الحالتين يطغي عليها القبح (من قبح أي اختل توازنه بالانتفاخ ، وضمر ، والضمور : خيال مستوحى من الحياة نفسها). ويستحوذ عليها القلق من هذا الميل (anomalie) عن فطرتها .

قبح وقلق ، كلاهما يتخطى حدود شخصية المسؤول عنهما اذ أنهما يحدثان بالتجاوب الروحاني مع الاخرين،تشوشاً في بنيان المجتمع ويفسدانه. فساداً تختل به الإصالة وتغوص في الأحفاد قاعدة الخصال الكريمة . فينحدرون إلى المسوخية وتزيغ المؤسسات العامة أيضاً عن محورها ويطمس على قبحها ثم تتفكك أواصر الرحم وتجف العواطف ويتباين القادة مع الجمهور في الغاية فتضج السماء حينئذ على هذه الخوارق وتلقي المسؤولية على الجميع : مسؤولية مشتركة بين الأجداد والأحفاد (الاباء

يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) ومسؤولية المعاصرين في ذات الجيل . فإن يكن من أبناء الأمة حراً باختيــاره محوراً ينشيء عليه شخصيته فقد تحددت هذه الحرية بالإصطفاء (كما تشير اليه الكلمة نفسها: الحر : هو الخالص الصافي) والاختيــار (من الخير : أي الأحسن والأقرب من كمال) لذلك كان كل أبنائها الذين يحملون نزعتها متلازمين ومتنامين . وهم مسؤولون عن بنيان مجتمعهم الذي ينشئون هيكله تحقيقاً لغايتهم من الوجود . الهيكل الذي يسلك فيه الأحفاد على مابنى الأجداد. فيقومون شخصيتهم بما انطوى عليه هذا الهيكل من رموز. ويوفرون بذلك على أنفسهم الجهود المبذولة ليصعدوا متسامين .

فإذا كانت الأصالة قاعدة عليها أحفادنا باختيار هويتها من الذكريات والعادات المكتسبة . فإنما بالتجاوب بيننــا وبين بيئتنا الاجتماعية — الطبيعية تزدهر شخصيتنا وتزهو . بيئة ، وان اشترك الفن والصناعة في تنظيمها . فانما يتم بالبصيرة الإهتداء اليها .

تبدو الحيــاة تارة في تطور (en évolution) وتارة في انقلاب (on révolution) إذ ، أن تجلياتها البديئة (original) امــا أن تندرج في سجلها بالذاكرة ، وترسخ في بدنها بالعادة ، واما أن تبدر كنقطة انبثاق ذات مظاهر منسجمة ، فإن رمز البدن بالنمو إلى الحالة الأولى ،

وبالاستحالة (métomorphose) إلى الحالة الثانية ، فإنه يعبر في الشؤون النفسانية عن كلتا الحالتين بالنبوغ (من نب : طلع ؛ باضافة « غ » بيان الغيب ،) والعبقرية (من عبق وقر ؛)

وان كلمتي « حدس » و « حزر » يهديننا بنشأتهما الى اتجاه الذهن العربي بحدسه في حقيقـة النمو بمظهريه : النبوغ والعبقرية . وهكذا فـ « حدس » من « حد باضافة « س » بيان الحركة . و كذلك « حزر » من « حز » باضافة « ر » وهذه تعبر أيضاً عن الحركة . كأني بالذهن العربي يشير إلى أن النفس تنشيء عادات (حزوزاً في طيات الدماغ) ، وأنها بتوجيه هذه العادات (التي تنطوي نفسها على النزعة الى الانسجام) توجيهاً متقارباً تخلق منها منظومة بها تدعو آيتها (الهامها) الى التجلي .

وإذا ما انبثقت هـذه الاية عن صميم الوجود استغنت حينئذ النفس عن ذاك البناء التمهيدي (العادات والتجارب) استغناء المعمار عن الهيكل الخشبي الذي ركز عليه عمـارته . وهي (أي الاية) تأتي عند التجلي ، بمنظومتها البديئة ذات الاتجاهات المعينة في الملأ الأعلى ألم تشر كلمة (نبغ) الى اتجاه الحدس نفسه بحصولها من كلمة : (نب) : طلع واعتلى ؟ ثم ان شقيقتهـا وصورتها الحسية (نبـع) الا تزيدها ايضاحاً ؟ فكما أن المياه المترشحة تحت الأرض تفتح مجاري تدفع قوتها

المتدفقة بسدها فتطلع إلى الشمس ، كذلك تنزع هـذه العادات والتجارب المختزنة في الدمـاغ ("الغيب" الى منظومتها (وحدتها) مستمدة قوتها من القدرة المختزنة فيه ، تفتقر في تحققها الى توجه النفس اليها افتقار كافة الأحياء إلى طلعة الشمس عليها ، ومن هنا نجمت الصلة بين النبوغ وطليعة المرحلة التاريخية التي تنطوي على البيئة الطبيعية الاجتماعية ، وعلى التيارات الثقافية ، وخصوصاً على ما اختص به الفرد باختياره من هذه المرحلة، حيث يبدو توافق هذا الاختصاص وانسجامه مع ما انعقدت عليه حياته ، وهذا التوافق يحتمل كل الدرجات، وعليه يتوقف تفتح الفردية وازدهارها .

فإذا ما كانت العادات والتجارب متباينات مع البنية ظل تركيبها مصطنعاً (artificiel) ، وعفياً . وهو ، أي هـذا التركيب ، رغم ما كلف صاحبه من جهد يبقى أبداً عرضة للانهدام ، فمثله كمثل ينبوع حصل من ترشح المياه من آبار ذات قعر متواصل فهو يظل قاصراً عن فتح مجراه بقوته .

وليس من العبث ان اقتبس الذهن العربي كلمـة (بصيرة) عن (بص) صورة الينبوع عند طلوعه ، وإن بنيان كلمة (بصيرة) يشير الى الانبثاق (راجع بحث النسبة) ، انبثاقاً تأتي كل من تجلياته

بنورها الخاص ، ولئن تفاوت هـذا النور فإن شفقه ، مهما ضؤل يبقى هدى في ادراك الحقيقة على اختلاف درجاتها بالعمق . فإذا التبس هذا الشفق بالمداد في الحدس فإنه ليصبح كوكباً ساطعاً في البصيرة المطلقة حيث تنكشف الحياة كاملة لذاتها .

هكذا يلتبس المعنى بمداده فيبعث هذا الأخير بنزعته الى التحقق بالحركة الكامنة في الأجزاء المتنزعة عنه عبثاً يحدث شعوراً مبهماً بالغاية التي تعكس آيته ، وقلقاً يحض النفس على الدأب في تحقيق هذه الغاية ، وما الاستطلاع (curiosité) إلا بشائر هـذا البعث ، فتبـدأ النفس بتحقيق هذه الغاية خيالاً (en cshème) مستوفيـاً في الذهن شروط طبيعته الأساسية كما يبـدأ المعمار عمارته بانشاء مخططها مصغراً (en miniature) اجتناباً بشطط الخيال ، وتوفيراً للجهد المبزول .

ولئن تعاون الحدس مع التـأمل (réflection) على انشاء هذا الخيال في مجابهة العالم الخارجي (الاكتشافات العلمية والاختراعات الصناعية) فقد بدت فيه البصيرة شفافة ، يعرض فيها التأمل عن العمق بداهة (بدا ، بده ، بدأ ، مبدأ . . . . اخوات وتطوي على نفس الحدس) المبادىء التي ينتهي اليها الحدس العلمي في انحداره نحو عـالم الإمكان . إلا أن البصيرة ارتقاء من الإمكان نحو الوجود ، فإذا هي

مست هذا العالم ، بالحس والخيال ، اهي انشأت عناصره من هذا الحس؛ ارتقت بدرجات متفاوتة في بنيان الوجود الانساني الاجتماعي (الفن والفقه) فهي وان ظلت مقيدة بمبادىء الإمكان ، وانما تزيد كل درجة تعتليها من دائرة أثارتها فيشرف المعنى على ادارة تجلياتها أوضح فأوضح. وهي لن تتحرر بصورة مطلقة من تلك المبادىء إلا في البصيرة الكاملة حيث تتجلى لذاتها بفيض نورها المنبثق عنها .

ألم تبدو الحياة معنى بديئاً (original) في كافة تجلياته الأصيلة ؟ معنى يحاول أن يوجه القدر حسب مشيئته ؟

ألم يشر البدن بالمخطط الذي انطوى عليه الى مصمم هذا المعنى في الوجود

فلئن كان هذا المخطط يتحقق بالدماغ وبالجسم الذي يستكمل الدماغ وظيفته ، فإنما هو بمثابة نابض (ressort) على تفتح سطوحه المنحدرة . تجيب النفس بتنزع ميولها . كتفتح الهيجان (émotion) بتجاوبه مع بوادره (expressions) واذا ظل هذا المصمم في تجليه لذاته (في المعرفة) مفتقراً إلى صور بها يتحقق فقد يكتفي ببعض من تجلياته . وهو بنسبة ما يحملها في تساميه يتعداها بغناه تعدياً ترتقي فيه المعرفة من أدراكها إياه كمبدأ موجه ومصطفى الى حقيقة حيث يتجلى للنفس المطلة على الملأ الأعلى بهويته .

يظهر هذا الافتقار بداهة في نشأة البدن ونموه . إذ أن هـذا الأخير يتلقى مبدأ فعاليته من منبه خارج عن ذاته (الابوين) . فترتكز فعاليته المستيقظة أيضاً في تفتحها على القدره المقتبسة عن العالم الخارجي ومها ضؤلت في المعرفة . الحاجة إلى هذه القدرة فإن هذه تظل مـع ذلك أساساً في كافة درجات التجلي . إن الحس يرتكز مبـاشرة على الكون والذكرى يتحقق أيضـاً بالقدرة المستفادة منه وما الأشياء إلا لوحات فنية بها يستيقظ المعنى وباستناده عليها يحقق مصممه . وإذا كان الرسم وسيلة تحتفظ فيه الأشياء بطبيعتها الخاصة ، فإن هـذه الوسيلة تستدق في الموسيقي حتى تكاد أن تكون ابداعاً بأجزائها وبمنظومتها ففي المعرفة العليا يتجلى الإلهام ذاته ببهائه .

ولئن كانت النفس : من حيث المعرفة ، عالماً بذاتها مقتصرة عـلى الانكشاف عمقاً وشمولاً داخل حدود عالمها ، مرجعة الاشياء الى وجهة نظرها بحيث تشترك في تعيين طبيعتها ، فتبقي أبداً من حيث الوجود ، متفرقة الى ما يتعداهـا . وهي تظل بنزعتهـا تتراوح بين الثنائية (Dualisme) . والوحدانية المثـاليـة (monisme) تراوحا يتميز به مركزها من غايتها كأني بهـا بنيان ذو محورين متباينين وبتباينهما متتامين : المعنى والعالم .

تقترب المعرفة من بنيان البدن خصوصاً لمبدأ التلازم باقترابها من العالم . وهي بهذا الخضوع نسبية (relative) بينما ترتقي هـذه المعرفة بتساميها نحو المعنى حتى تصبح في البصيرة مطلقة (absolue) .

فالحياة اذن تفسير معنوي أي مبدع ذاته في اتجـاه معين . فتناسب ابداعه مع انسجامه مع محور الحياة الأصيل . كأني بها نغمة في الوجود . فيهـا تتجاوب كافة نغماته (تجلياته) وهي ذاتهـا معنى بالنسبة اليها يتحدد اتجاه هــذه النغمات . وعلى مدى الانسجام بين نقطة نظرها وبين وجهـة هذا التجاوب يتوقف وضوحهـا ونفوذها في الكائنات .

يشتد هذا الوضوح أكثر فأكثر ، ويتسع مدى ذاك النفوذ أعمق وأعمق حتى تبدو الحياة مستكملة شروط انبعاثها من ذاتها فتنشىء ذاتها من تجلياتها مستغنية عن العالم، ولو أنها مسته واستندت عليه في صعودها، فهي تبدو حينئذ عبقرية، ومثلها كمثل الخلية الأولى المستجمعة في وحدتها قطبي الحياة : الامومة والابوة .

أما تستهدف هذه العبقرية في ابداعها بعث الموجودات بعثاً رحمانياً فتعوض بذلك عما ضاق الكون عنه ، وما حدده مبدأ التلازم في الحياة؟ فهي تغوي مبدعاتها بسلوكها الفني ، ثم لا تخلق هي من شخصها ذاتاً

بحيث يبدو هذا التباين متلاشياً في درجات الوجود وأنواع الموجودات التي تحددت رتبها بهذه الدرجات ؟..

تعين المياه قيم الحوادث قبل تحققها.حتى انها تحدد هذه القيم بالهيجان مستقلاً عن تميل نتائجها في الذهن . فتثبت وحدتها بعمقها وشمولها . ألم تختزن حياة الفنان من التجارب البديئة . والذكريات النبيهة . اينشيء من صورها المصطفاة الخيال المحقق لإلهامه ؟...

لقد عبر الذهن العربي بالكلمات السلبية أيضاً على نظرته الفنية في الحياه . اذ أن كلمة « خطأ » (من « خط ») تفيد الخروج عن الحدود المرسومة للاشياء من قبل طبيعتها . وخص شقيقتها «خطيئة» بالخروج عن الاخلاق . وقد ميز درجات هذا الخروج بكلمات تشير الى نفس النظرة : « ذنب » صورتها الحسية « ذنب » . « ثواب » ، صورتها الحسية « ثوب » . « قصاص » ، من « قص » . « جزاء » من «جز» . « جريمة » ، من « جر » . وهو قد كان أبياناً بتخصيص كلمة « قبح » بالخلل في اتزان الصورة الفنية (البروز والضمور معاً . ألم يجمل هـذا الذهن حدسه هذا بكلمة « خلقة » المرتسمة حدودها بالاخلاق ؟ أي اخلاقنا التي تعين حدود سيانا ، فإن وجهتي الخلقة البدن والنفس وان التبشا في بدء ظهورهما التباس الصورة بالمعنى في الحس ، فهما ينموان

متباينين (بان ، تباين ، اظهر بعضها بعضا) : والصورة المشتركة بينهما تنطوي على الميل (الميل الى العودة) والميول متفاوتة بالقابلية للتفتح ، وهي تبعد عن التكرار بمدى تفتحها ، هذا التكرار الذي تنفر منه النفس بعد ان انشأت عادته فان هذا التباين في بنيان العادة ليلقي ضوءاً على اتجاه الحياة نفسها . إذا كان في العادة توفير للجهد ففيها تحديد للابداع ايضاً ، بها تجمل النفس نزعاتها الضئيلة ، وبتداعي أجزائها تتبت منظومتها ، وبها ايضاً ترسم خطوط سيمائها ، وعليها تستند في تساميها فبينما تبدو في اول وهلة نشأتها اغنية منعشة فإن دعوة الوجدان اليها تصبح تكراراً مملاً ، وهذه العودة جوفاء طويلة . اذ أن الحياة فقدت بذلك حكمة بنائها . وليس عبثاً ان بدت الشيخوخة والمرحلة التاريخية المتحكمة فيها الرجعية جوفاء ومملة ايضاً . . . فلو كانت النفس تبدع مطلقاً لأهملت الابداع مطلقاً ، ولكنها تخلق ذاتها بتحديد صورتها بحدود تكشف عن وجهة نظرها في الوجود .

فلئن تضمنت العادة ميلاً هو مبدأ انبعاث حالاتها ، أو فكرتها هي غاية انسجامها فإن بنيانها هذا يشير الى اتجاهي تفتح الحياة ، المعنى والتداعي . فتتجه بالتداعي نحو الحوادث فتنتهي بادراك سلسلتها لذاتها كاطار مجوف ، وتعتلي بالمعنى عن هـذا الاطار متسامية بصبوتها نحو

الالوهية غايتها . فإذا كان وضوح الفكرة بمطابقتها ذهناً على الواقـع أي استكمال تداعي بنيانها فإن خاصة الآية إنما هي بتحققها في النفس أو بارتقاء النفس اليها . وإذا تبتدىء الفكرة بادراك التجربة (الحس والذكرى) فإن الآية تتحقق بتفقه النفس بنيانها المتجلي بها علماً وعملاً ولئن كانت التجربة بدء صلتنا الرحمانية بالوجود فقد بدا الحس آفاقياً (objectif) . وان بنياننا الانساني يبـدو ايضاً في النفس أناميـاً (impersonnel) بتجاوبه تجاوباً رحمانياً مع البيئة الاجتماعية ، وليس فقدان هذا الاتصال الرحماني عمهـا للنفس فحسب (عمه مقابل للعمى الحسى) ، بل نمو مفتقر الى ما توجب بصيرتها من عمل ايضاً والا لباتت حياتها كأنها في منام .

فالانسان من بيئتـه الاجتماعية كما هو من بيئته الطبيعية ، أي أن نفسه تتفتح باتصاله بها وتنمو بواجباتهـا نحوها ، والنبي يخلق ذاته بخلق مجتمعه .

تصبو كافة النفوس الى النبوة صبوة متفـاوتة ، وهي على العموم تترجس هذه الولادة وإذا رجت قدوم المخلص من الخارج فما هذا الا عبادة المعنى المستفاضة (projetées) لها . وما القلق المستحوذ عليها (كما هى الحال في كل ولادة) الا كالنوء الذي يبشر بقرب الموسم ، فمحاولات

النبوة لم تفتأ تظهر وانما تختار العناية المصطفى (sélectionné) لرسالتها.

مثل النبي كمثل السيارة « الارض » التي تحمله ، اذ انه يبدأ سديماً مشتاداً حميمه بمقاومة القيم البالية توقية منها . حتى تتبلور نفسه عن قيم تبته (المرحلة التاريخية) كما تفتح الارض عن كوامن الحياة التي بها تزهو . فان تفتحت الحياة وازدهرت على طلعة الشمس مصدر انبثاقها فكذلك النفس : بنيتها على الخير مصدر انبثاقها تتجلى عن المعنى فتزهو بهذا التجلي .

إذا ازدهرت حياة صاحب الرسالة عن بنيانها الانساني . نامية بالانسجام مع بيئها الأجتماعية . فالبطل . عند الاستشهاد يوقف بارادته تيار القدر وقفة تنفتح بها الحياةعن كامل تجلياتها. انشودة (symphonis) قد انتشرت كافة انغامها منذ البداية حتي النهاية في حالة وجدانية موحدة (état existentiel unique) فانطلق فيها المعنى حينئذ كاملاً .

الفصل السابع

المنظومة الصوتية

لقد أوجزت العبقرية العربية رأيها في بناء صورتها التي تجلت بها في الوجود بكلمات تشير الى وجهة نظرها في فن هذا البناء فكلمة «بديع» مثلا وهي من « بد » المتحولة عن « بت » أي فرّق وقطع واخواتها: بدأ بديء (original)، مبدأ (principé) بديهي (évident)، ابداع (création)، بدي ... الخ تفيد كافة التجلي أي تجلي المعنى خلال حجاب القدر. فلكل جلوة اذن عند بدورها من الملأ الأعلى رونقها متناسباً مع عمق بدعتها.

وكلمة « حسن » وهي من (حس)، تشير الى أن المعنى متلازم تحققه مع الصورة، ووضوحه متناسب مع قابلية هذه الصورة البيانية التي انشئت من تجلياته خلال هذا الحجاب. ثم كلمة « جمال »، وهي من « جمّ »، « جمل »، تعين حدود هذا التلازم بين المعنى وصورته

شخصياً، أم آفاقياً . وان سيماها المرتسمة رموزاً في لسانها لتدعوا الأحفاد الى أن يسلكوا طريق الأجداد، تدعوهم كميل قد انطوت عليه نفوسهم ، وكمثل اعلى اليه يصبون ، ويتسامون .

وان هذه الوحدة المتجلية في انسجام الحروف والحركات والكلمات والقواعد حتى والاسلوب ، لم تكن فكرة مجردة قد بناها الذهن عرضاً ، ولا غاية ما تنتهي اليه المادة في انحدارها نحو التجانس بل هي وحدة معني نزاع الى التحقق بالصورة التي انشأها من تجلياته الصوتية، وإذا جاز التعبير عن هذا الانسجام بكلمة (قانون) فينبغي تميزه عندئذ عن بقية القوانين الخاصة بطبيعة الاشياء ، والمستقلة عن وجهة نظرنا ، وحتى عن قوانين البدن ، إذ أن هذه تعينت حدود تلازمها في الملأ الأعلى ، بينما تراخي هذا التلازم في اللسان أكثر فأكثر تعبيراً عن المعنى مبدعه . مثل المعنى كمثل فنان قيثاره الفم ، فهو وان استعان بالصور المقتبسة عن الطبيعة الخارجية أو الطبيعة الانسانية فاقتبس من الاول تقليد أصواتها ، ومن الثانية بيان مشاعرها الصوتي فإنه لم يقف عند الاكتفاء بما تعرضه الطبيعة عليه، بل أخذ يختبر قابلياته ، ويتفنن بالكشف عن دقائق (nuonce) تلونها ، ثم يصطفى من هذه التجارب البدينة ، المنظومات الصوتية التي هي أقل بياناً عن تجلياته ، الآخذة بالتسامي ،

استكمال هذه الاخيرة شروط بنيان المعنى الاساسية، فتحرر النفس بهذا التحق من قيدي المكان والزمان.

ان هذه النظرة الفنية في الحيـاة لتبدو في كافة مظاهر العبقرية العربية وخصوصاً في لسانها، حيث تتلخص هذه المظاهر.

وبينما يختلف في اللغات المشتقة كل من النحو والمفردات والمنظرمة الصوتية (systéme phonetique) بنشأته ويستقل في تطوره فإن هذه تخضع كافة في اللسان العربي لذات المبدأ بحيث تنسجم بجملتها وبأجزائها، وبهذا الانسجام يكشف ايضاً عن وحدة انبثاقها.

يتميز اللسان العربي عن سواه، فضلاً عن وحدة انبثاق مظاهره وانسجامها، بمنظومة معاني كلماته التي تفصح عن نفس النظرة في الوجود وعلى الخصوص بموافقة هذه المعـاني بياناً مع ذلك البنيان الصوتي. فهو سيماء الامـة التي انشأته تكميلاً لصورة أبنائها الذين أتموا هـذا الانشاء السيماء التي تعكس حقيقتهـا في الكون، وتكشف بذلك عن هويتها كشفاً متناسباً مع وضاحتها في نفوس هؤلاء الابنـاء مخضعين القدر لمشيئتهم.

فلئن مست هذه العبقرية القدر فقد انطوت بتماسها هذا على ضروراته تماساً تتحرر منه حتى تبدو مستقلة عما عرض بالنسبة اليها، سواء أكان

وهو يستعين بالآخرين ذوي البنيان المشترك لرحماني اعلى تقدير صدق ابداعه ، استعانة الفنان بوقع ألحانه في نفسه .

إذا كانت الخلايا تنشيء الاعضاء من تفرعاتها المختصة ، بدافع الحيــاة وتفتحه في الكائن ، فإن الصور الصوتية تتفتح كذلك بالاشتقاق وتتعين حدود نموها بالقواعــد تحقيقاً المعنى . والاسلوب الأقرب من كماله هو الذي يجاري الحياة نفسها خضوعاً لمبـدأ انسجام الصور في تعبيرها عن الفكرة الاصيــلة . وهو بنسبة بيانه في جملته وفي أجزائه يكون تأثيره السحري في دعوة المعنى كتـأثير البوادر في دعوة مشاعرها .

لقد أوضحنا في فصلي البيان الصوتي والمرئي علاقة الصورة بالمعنى ها نحن اولاً نتعرض لقوام هـذا اللسان من حيث هو لسان ، أي من جهة تفنن اصواته ودقتها اولاً ، وانسجام منظومة تراكيبها ثانياً .

لما كان الهواء يخرج من الحنجرة متموجاً فان كل موجة تحدث بوقفتها حرفاً بنائياً (consonne) وبانتقالها بين وقفتين ، حرفاً صوتياً (Voyelle) ، ومن تركيبهما لحناً (مقطعاً) . ومــا الكلمة الا منظومة الحان يجيب بها الذهن في وحدة من الزمان على الهام فكرتها . ويختلف مداد الكلمة عن الحركة بتفرعه متزنا كتموج الحياة في نمو الكائن .

ان توزيع الحروف العربية على انغام (gamme) شفوية : و ، م ، ف ، ب واتوبة : ظ ، ذ ، ت ، واسلية : ص ، س ، ز ، وذولقية : ن ، ل ، ر ، وشجرية : ض ' ش ، ج ، ونطعية : ط ، د ، ت ، ولهوية : ك ، ق ، وحلقية : ه ، غ ، ع ، ح ، خ ، أ ، وحروف اللين : ي ، و ، أ ، كل هذا يكشف عن الدقة في تكونها وتطورها بالتدريج بالاضافة على غنى نشأتها .

وتبدو الدقة والتلون على الخصوص في حروف اللين ، اذ أنهـا تتموج بين كافة الانغام من اثنائية الى صوتية مفخمة ، فـإلى حركتها المخففة ، حتى انهـا تـكاد تنتهي في الشدة والجزم بالسكون ، وذلك بيانا لتجليات المعنى المختلفة .

كنا قد ميزنا بين النسبة التي تحصل من تلازم حالاتها بالحدس عن النسبة التي يبينها الذهن بالشعور ، وهذا البنيان الحدسي يبـدو أساسا في اللسان العربي . ففي الجملة الفعلية ، يحمل الفعل في المؤنث الحقيقي ، رغم تقدمه على الفاعل ' طابع جنسه ، مع أنه يتحرر في كافة الاحوال من شروط عدد الفاعل ، إذ أن العدد يحصل من جمع الاشيـاء خلال المكان بينما الجنس يبدأ مع طبيعة حدسه فطرة : فيقـال جلست المرأة جاهد المؤمنون . وحينما ينفصل الفاعل عن فعله بكلمة او حرف ، يرتخي

هذا التلازم : سافر اليوم هند ما قام الا هند ، كما أنه في المؤنث المجازي (الحاصل بالاصطلاح) يبقى التوافق بالجنس بين الفاعل والفعل اختياريا: تنوح الحمامة .

في حالة تقدم الفاعل على مافعله. حيث يبني الذهن الجملة بالشعور يكون التوافق بالجنس والعمل معاً : العساكر حضرت ' هند ليست في الدار.

ويبدو هذا البنيان الحدسي بوضوح أشد في الأوزان: نجب، ونجب نبل، ونبل : حيث تعبر حركة الحرف الثاني عن تجاوب الفعل مع الفاعل والمفعول في وحدة الادراك ، فتنكشف الفعالية من هذا التجاوب .

وكذلك يبدو الطابع الحدسي أساساً في صيغ الافعال : استقبل ، اندفع ، فكأن التفكير بالجملة هو الأصل وما الكلمات إلا ركائز بيانية (كما هي الحالة في اعضاء البدن) يستند عليها حدسها في تفتحه، فما يشترك الشعور ببنائه ينسجم مع طبيعة الحدس اذ أن حروف النصب والجزم تدخل على اعراب الفعل تعديلا فتحوله. الاولى الى فتح (ابهام المستقبل) والثانية الى سكون (توقيف الفعالية في ماض مزعوم) وهذا الانسجام (اي انسجام اجزاء الجملة بالاعراب) عام في اللسان العربي ، وكلما اقترب من بنيان الكلمة لذاتها ظهرت طبيعته الحيوية الى أن يصبح الوصل

والإدغام والإعلال من مقومات اللسان العربي الاساسية .

ولا غرابة ، فلما كان هذا اللسان بديئاً ، لسان آدم (المعنى متجلياً في الوجود) فقد استكمل كافة شروط لاصالة .

الفَصْلُ الثّامِنُ

الامة العربية

تنبثق عن ذات الامة نظرتها في الوجود وهي تحمل طابعها وانه ليس عبثاً ان افترض الهنود الاثير، واليونان الجزء الفرد (atome) والشعوب السامية النمو بالتطور والانقلاب (evolution et révolution) والانكليز التطور بالاصطفاء (par sélection). فكل من هـذه الامم قد أدرك الوجود خلال بنيته . وهكذا فإن العرب قد أوحوا إلى العالم فكرة الخلود، الفكرة المستوحاة من طبيعتهم المتصفة ذاتها بالخلود .

ان الامة العربية وهي ينبوع الشعوب السامية كافة ، عالم بذاتها لم تأفل منذ ظهور الانسان على مسرح التاريخ وهي تظهر بفيضها في كل مرحلة ما تراكم من آثام على الشعوب فتهديها إلى تحقيق أهدافها .

مثل الأمة العربية كمثل السديم (nébulosjté)ذاته (أصل الوجود) يتكاثف حيناً ثم يتناثر بعـد حين فتنجم الشموس عن تكاثفه ثم تنتهي بتناثرها في الاثير .

كذلك الأمة العربية (وهي عبارته) فإنها أبداً مشرقة بنورها على الانسانية . وقد تبدو حيناً مفككة متناثرة ، أبناؤها منزوون في قوقعة من الأنانية ، إلا أنها لاتلبث حتى يسطع منها نبي أو زعيم فيبعث بها من جديد ويلقي النور الحاصل من تأججها شفقاً على العالم أجمع فيهدي الأمم حينئذ بمنارته الى تحقيق رسالتها . وعند ذلك تتحدى هذه الأمة تقديرات المؤرخين .

* * *

ما هي الامة ؟

أهي مفهوم يبنيه الذهن تعبيراً عن وضع مشترك وعام . (وضع ثقافي مدني) قد أنشأه الاجداد فأورثوه الاحفاد ؟

أم هي آية اصولها في الملأ الأعلى . تتحقق باندراج تجلياتها في المكان . وباستجمام هذه التجليات في الزمان ؟

أهي عبقرية مبدعة أم بنيان متلازم المظاهر بالتداعي ؟ ان فلسفة الانسان هي صورته التي يكسو بها الكون .

ولئن اختارت الأمة العربية حقيقتها في الملأ الأعلى (الله علم آدم الاسماء . ثم : الاسماء تنزل من السماء) أي أنها قد جهزت صورتها

بمقوماتها (غرائز في "بدن وواجبات في الوجدان) هذه المقومات التي تبدو مصمماً تنطوي عليه كافة مظاهرها العامة والخاصة. في نسجه الاجداد محقق لما كان في قرارة نفوس الاحفاد. فإنها (أي الامة العربية) ليست كسواها شركة مساهمة (كالمصو) او جملة ذكريات وأماني (رينان) بل إنها بنيان قد اشتركت في تشييده السماء مع الارادة الانسانية منسجمتين. بنيان يتمتع بنشأته هذه، بهالة من القدسية.

* * *

إن الفرد، ككل ظاهرة كونية، هو بالطبيعة جسر الا أنه من حيث الانبثاق كمبدأ ينزع الى استكمال شروط ماهيته بالعبقرية. فبالحرية ينشيء بنيته مستقلة، بحيث يصبح هو بذاته عالماً. إذ أن التجربة التي يكشف بها عن هويته تنطوي على حدس وواقع فتستنير النفس بلمحة ذلك الحدس لاختيار تجلياتها خلال الواقع. وتدل وضاحتها على اصابتها في هذا الاختيار. الوضاحة التي تقتات بها هذه النفس. فيبدو نموها استطلاعاً فسيحاً نحو العالم الخارجي. وصبوة في اتجاه ينبوعها. وتحررها من القدر بنسبة رقيها في استجمام قطبيها. فإذا كانت فسحة العالم الخارجي قاعدة هذه الارتقاء فإن المجتمع يسمو بها بانمائه مشاعر الرحمة. وبعثه القيم الانسانية عدلاً متسامياً.

فحكمة وجود الانسان اذن هي أن يتحول من ظاهرة طبيعية هي سبيل للقوى الكونية . الى ذات ' باستجام تجليـاته في وحدانية واحدة تبدو هذه الحكمة التى في بنيان البدن الذي انشأت منه الحياة قدرا طوع ارادتها .

على ان هذه الحياة قد زات في كافة الانواع وخضعت لقدرها باستغلاق الميول في بدنها مع الاشياء غايتها . الا في الانسان حيث تحرر المعنى بمسايرته الحياة على غرار بناء عدانها : أي التجلي والاستجام . إذ أدرك أن التداعي ينتهي باللانهـاية (L'infini) بينما يرتقي الانسان بالاستجام إلى العظمة (l'immense) .المتحررة من مبـدأ التلازم ، فيتمتع بارتقائه من الخيرات (الفقه والفن) التي حرمت منهـا الحياة في الأنواع الاخرى .

وان صواب الحدس هو مشيئة الحق (vouloir être c'est être) هذه المشيئة التي تجلب معها النمو والسعادة . ولئن كشف الانسان عن هويته بالتجربة فقد أدركها منطوية في وجهتهـا الحسية على مبادىء العقـل العامة . وفي صميمهـا على مباديء الأخلاق وما توافق الحدس مع الخيال المتحقق سواء في العلم أو في الفقه الا بيان لتلازم الطبيعة مع الملأ الأعلى .

فإذا كانت التجربة مبعث كل معرفة ، فإن المجتمع، بحفظه لتجارب الموهوبين من أعضائه ، يشيد صرح المدنية الثقافة . ومن هذا التراث تغتذي نفوس الاجيال غـذاء صلاحه في تحرر الحياة فيه من أشكالها البالية : في بنية الافراد بمدى تجاوبهم الرحمـاني (pexressivité) وفي بنيان المجتمع باستقلال القيم الانسانية عن التقاليد الجرفة :فكأن المجتمع انشودة ألحانها أعضاؤه. وجماله هو في تحققه كاملاً بحيث يتجاوب هـذا التحقق في نفوس اولئك الاعضاء .

ان التواصل والانسجام في نمو هذا الصرح الانساني ليعبران عن صدق اختيار الذين شيدوه تحقيقاً لمصمم الذي انطوت عليه نفوسهم ، وليست الوحدة المتجلية في هذه المظاهر بناء مصطلحاً عليه ولا وهي مصطنعة وانما هي آية اصولها في الملأ الأعلى، تتحقق بالصادرين عنها والحاملين ميولها وأمانيها. وان مدى صدق الاختيار متوقف على اصطفاء الصفات النبيلة في الأبداع الجنسي .

ان العلم والحلم اذ ينجمان عن فسحة الخيـال الحاصل من استجمام الصورة في وحـدة ادراك ، فيلقيان ضوءاً على بنيـان الكون وبنيان الانسانية على السواء ،فإن تعينت حدود هذه الفسحة بالاصطفاء الجنسي، فهي معمدة (sanctifié) بوحدة مبدعة في الملاء الاعلى. وما قدسية

الزواج الاظل (refiet) هذا الابداع . فإن ضاقت هذه الفسحة،طمس على الحقيقــة والتبس الرمز بالصور الصادقـة وتقلصت الارادة عن ادارة تجلياتها .

ففي الأمة العربية ، تنطوي اذن ، نفوس ابنائها على مصممها ، منه يستلهمون شكل بنيان جمعيتهم فيرتقون الى مثلهم الأعلى ، وبالاستناد على تجلياته في المكان واستجمام هذه التجليات ، يتم ارتقاؤهم بالتجاوب بين ينبوع الحياة وتجلياتها الزاهية ،فبالديانة ترتشف هـذه النفوس من ذاك الينبوع ، وبالفن تستغرق في تلك التجليات .

بينما في الامة المشتقة ، تحجب نفوس ربائبهـا عن مصممهم بحجاب من الرموز المصطلح عليها ، وهم يحاولون عبثاً خلال هذه المظاهر النفوذ الى حقيقتهم ، فهم ينصرفون إلى منطق تحليلي ، وبمدى نسبة اصالتهم، أي اتصالهم المباشر بالطبيعة (الكون والانسانية) يساهمون مع ابناء الامة العربية العريقة بالاصالة في انشاء المدنية وتثبيت قواعد الثقافة الانسانية.

* * *

لم تختلف الأمة العربية عن سواها بنشأتها السماوية وبنيانها الخالد فحسب وانما امتازت على الخصوص بذهنيتها المنبعثة عن تلك النشأة ، وبمفاهيمها الانسانية ذات الصلة بهذه الذهنية .

لما كان العرب يصبون بفطرتهم المدعومة باتجاهات مؤسساتهم الى الملأ (le plein) الأعلى ، وتعتلي نفوسهم في صبوتها نحو ينبوع انبثاقها، بتجاوب هذه المؤسسات مع تلك الفطرة تجاوباً رحمانياً ، فقد بدا لهم الزمن في هذا الصعود مليئاً ونامياً (duratif et progressif) وبدت لهم الديانة فيضاً (الصلاة ... من صلة الفرد بينبوعه) والحياة والاشياء (وجهتـا الوجود) متباينتين ، في تباينهما متلازمتين ، فانتهى ذهنهم بالتمييز بين الآية (idéal) قوام شخصيتهم وغايتها ، وبين المفهوم الذي يبنيه خلال المكان ، تمييزاً جلياً ، بينما التبست الآية في الامـة المشتقة ، بمفهومها ، على ربائبها ، وهم يحاولون عبثـاً ادراك قرارة نفوسهم خلال الفضاء (le vide) كما لو حاولوا ادراك الخيال . وقد ابلغ افلاطون بياناً عنهم ، باسطورة المغـارة إذ أن هذه النفوس الحـائرة تتردد في الديانة بين الايمان والريبة وفي المجتمع بين التقليد والثورة وفي الاخلاق بين المصلحة العامة والانانية . وهي تنتهي بالتعميم (universalisme) في كافة مناحي تفكيرها : اي التجانس في الوجود (Homogénéité) وبالعينية (identi té) في المعرفة ، حتى يصل شططها الى الاممية (cosmopolite) هذه النظرة خلال المكان في الشؤون الانسانية .

* * *

فالاختلاف بين الامة العربية وسواها ، يبدو خصوصاً ، على المفاهيم الانسانية الاصيلة ، فاللسان العربي ، هو بديء وذو بنيان اشتقاقي يشير بكلماته الى اتجاهات حدسها ، ويكشف بهذه الإشارة عن وجهة الأمة العربية فيها :

فكلمة حرية ، مثلاً ، تعني الاصطفاء ، وهي تتضمن حدود هذا الإصطفاء بالتقرب من الإصالة أكثر فأكثر ، ذلك بالاستقلال عن كل زغل أو شائبة . مع أن الاغيار يفهمون هذه الكلمة على الاغلب بمعنى الانطلاق انطلاقاً تعينت حدوده من الخارج بمصلحة الآخرين .

كذلك كلمة قانون أي (امر) المشتقة في العربية من (امر) الحاصلة من (أم) باضافة (ر) بياناً للحركة أو الانبثاق . فهي تفيد صدور الأمر عن الأمة أو بالأحرى عن ارادتها التي وإن تفاوتت صورتها بياناً أو تخلفت عن حقيقتها زماناً ، فإنها تستمد قدسيتها ابداً من مصدرها (الأمة) الذاتي (L'imporsonnel) ، ومن هنا اقتران الامر في العرف العربي بالعقيدة الشخصية . وليس عبثاً إذا نسبت الكتب المقدسة الى نشأة سماوية عند نشرها ، ليكون بذلك نظام المجتمع قواماً لمن افتقر الى الدعامة ، يعوض بها عن إصالته في تحقيق غايته . بينما فهمت هذه الكلمة عند الأغيار بمعنى القيد أو تحديد الحرية الشخصية

بالمصلحة العامة أيضاً . ثم إن كلمة مساواة تكشف على الخصوص عن اتجاه تطور المجتمع ، فإذا كانت روما تجازي (من جز) كل من تمايز وسطت هذه النزعة أيضاً ، علي أمة في إبان نزوتها فحملت ممثليها على قصف الكنائس بغية الحصول هذه المساواة ، فإن الذهن العربي قد فرق بين التمايز والاعتداء وأدرك تلازم المعرفة مع العمل ، فكل درجة يرتقيها الفرد تزيده فضلاً وتمنحه حقاً مناسباً في ادارة المجتمع. فلئن انطوى الانسان على المعنى فقد تمتع بقيمة مطلقة وتساوى الناس انما هو بهذه القيمة وباختيار السبيل المؤدي الى تحقيق هذا المعنى بالارتقاء من شخص الى ذات .

* * *

لئن نجم التفاوت في مراتب الأنواع الحيوانية ، عن مدى اتصالها رحمانياً بصميم الوجود ، والاختلاف في بنيتها عن وجهة نظرها في بنيان هذا الوجود ، وعبرت الحياة عن هذا الاتصال بعدانها حيث تلازم المكان مع الزمان في وحدانية تجلياتها ، فقد تمايزت الأمم بشمول عبقريتها وعمقها . يبدو شمولها بنفوذها في نسيج القدر ، ومدى سيطرتها على توجيه مجراه ، تحقيقاً لذاتها . وان الإنسجام بين صناعتها وفنها ليكشف عن اتزان صورتها الملقاة على موطن ابنائها، ويبدو عمقها في بصائر ابنائها،

البصائر التي ارتقت اليها نفوسهم مستندة على اتجاهات مؤسساتها وتفتحت على بنيانها الاجتماعي ، معتلية بتجاوبها .

على أن الأمة ، وها قد اختارت طريق الخلود ، طريق صبوة الحياة ذاتها . قد فصلت المكان عن الزمان في تحقيقها وتحررت بهذا الفصل من قدرها المغلق بمنظومة عدانها ، وبذلك استقل ، الى امد ، شمولها عن عمقها .

واذ استقل الشمول عن العمق ، أي المدنية عن الثقافة ، في الشؤون الانسانية ، فقد أخذت الأمم الحديثة ، على الأغلب تذل لمدنيتها ، فيصبح أعضاؤها ملحقين بهذه المدنية ، خاضعين لتياراتها متجهين نحو الرجل الآلي (homme machine) .

ولئن كان الفرد قد استقل إلى حد معين عن تأثير الطبيعة المباشرة بفضل هذه المدنية ولكنه خضع الى ذات الحد ، للميول النفسانية — الاجتماعية ، واستسلم لتحولاتها ، كما سبق أن خضعت الأنواع الحيوانية لقدرها (بدنها) . فماذا يربح الانسان فيما لو ملك العالم وخسر نفسه ؟ اليس دخول الغني الى الجنة أصعب من دخول الجمل في سم الخياط ؟

لقد تتشابه مظاهر الحضارات بنسبة اقترابها من الطبيعة ، كتشابه

الأنواع الحيوانية باقترابها منها، ولكنها سرعان ما تتفاوت بتساميها فيظهر بهذا التسامي خصائص عبقرية كل منها .

فقد تنجب الأمم شعراء كامريء القيس وعنترة ، ولكن انى لأمة أن يصبو كافة أبنائها الى الشعر كمثل أعلى ؛ فيزينون كعبتهم بقصائده الرائعات ويهللون لظهور النابغة منهم ؟ !

لقد زينوا قبلتهم بالشعر ، بحق ، اذ انهم قد عبروا به عن البطولة التي يستمد منها القبلة والشعر قدسيتهما ، ويرمزان إلى نفس الحقيقة .

ان ابناء هذه الامة قد تفردوا في العالم باستكمال شروط البطولة والشعر معاً وليس عبثاً أن رأوا في النجوم ارواح ابطالهم ورمز أمانيهم.

لقد انتشرت المدنية الحديثة من قطر الى قطر ، حتى انها كادت تخلق من العالم وحدة الا أن انتشارها كان بغية المتاجرة بمنتوجها ، أما العرب فإنهم قد فتحوا العالم بقصد تهريبه ، وتحقيقاً لهذه الأمنية ، ضحوا بنفوسهم وفتحوا العالم القديم ، وبسطوا سلطانهم من سد الصين إلى المحيط الاطلسي ، ومن أواسط اوروبا الى اواسط افريقيا وكان ذلك على ظهر الجمل : خليفة واحد ، قانون واحد ، لسان رسمي واحد ، إن الكلمات التي تزينت بها الأمم الاسلامية ، تشهد على تفوق هذه الثقافة وفضلها علي الناس جميعاً .

لقد خيم الأمن على هذه المملكة ، وشمل سلطانها العدل وازدهرت فيهـا التجارة والصناعة . وان كافـة الامم القديمة لتحسد العرب على تشجيعهم للعلم والعلماء . فقد كانت بغداد تغص بالطلبة على نفقة اوقافها التي كانت تكفل ثلاثمائة الف طالب مع كامل نفقاتهم ، لقد نهجت الامة العربية سبيل الحياة ذاتها ، فاتخذت المدنية والثروة وسائل تكشف بها عن كريم خصائلها ، واذا كانت منبثقة عن السماء فقد ظل رائدها العودة بابنائها اليها ذواتا (Homme-Dieu) . واذا كانت قد احتفظت بذكرى اكثر من ستة وثلاثين الف نبي فإن التاريخ ليتر بان كافه ابنائها قد استشهدوا ابطالا في فجر يقظتها الاخيرة (الاسلام) .

ان الأمـــة العربية لم تكن شهاباً خطف البصر بسرعة ، ولكنها منارة يتموج شفقها تموج الحياة التي عبرت عنها .

« (انتهى) »